

أبو القاسم الشابي

الخيال الشعري عند العرب



الخيال الشعري عند العرب

الخيال الشعري عند العرب

تأليف

أبو القاسم الشابي



الخيال الشعري عند العرب

أبو القاسم الشابي

رقم إيداع ٢٠١٣/٨٩٩٤

٩٧٨ ٩٧٧ ٧١٩ ٢٩٣ ٤ تدمك:

كلمات عربية للترجمة والنشر

جميع الحقوق محفوظة للناشر كلمات عربية للترجمة والنشر
(شركة ذات مسؤولية محدودة)

إن كلمات عربية للترجمة والنشر غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه
ص.ب. ٥٠، مدينة نصر ١١٧٦٨، القاهرة

جمهورية مصر العربية

تلفون: +٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥١ فاكس: +٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢

البريد الإلكتروني: kalimat@kalimat.org

الموقع الإلكتروني: <http://www.kalimat.org>

الغلاف: تصميم سحر عبد الوهاب.

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لشركة كلمات عربية
للترجمة والنشر. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة لملكية
العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2013 Kalimat Arabia.
All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

٧	الإهداء
٩	كلمة المؤلف
١١	الخيال
١٩	الخيال الشعري والأساطير العربية
٢٧	الخيال الشعري والطبيعة في رأي الأدب العربي
٤٥	الخيال الشعري والمرأة في رأي الأدب العربي
٦١	الخيال الشعري والقصة في الأدب العربي
٦٧	فكرة عامة عن الأدب العربي
٧٧	الروح العربية

الإهداء

إلى حضرة الوالد الكريم

الشيخ سيدني محمد بن بلقاسم الشابي الذي رباني صغيراً، وثقفني كثيراً، وأفهمني معاني الرحمة والحنان، وعلمني أن الحق خير ما في هذا العالم وأقدس ما في هذا الوجود! أتقدم بهذه الصفحات التي هي أول عمل أخرجه للناس. وأنا أرجو أن أكون قد تَوَحَّيْتُ فيها صراحة الصدق وجمال الحقيقة.

أبو القاسم الشابي

كلمة المؤلف

«لقد أصبحنا نتطلب حياة قوية مشرقة ملؤها العزم والشباب، ومن يتطلب الحياة فليعبد غده الذي في قلب الحياة ... أما من يعبد أمسه وينسى غده فهو من أبناء الموت وأنضاء القبور الساخرة.»

هذا الكتاب هو المسamerة التي ألقيتها بقاعة الخلدونية في العشرين من شعبان السنة الماضية، قدمتها للطبع دون أي تناقض أو زيادة أو حذف، إلا ما كان من التعليق التي شرحت بها ما يمكن أن يُشكِّل لفظاً أو يُبْهِم معناه، حتى يكون القارئ على بيّنةٍ مما أردت قوله أو دَلَّلت به، وإن كنت أعلم أن كثيراً من الآراء التي بها في حاجة إلى الشرح والبيان والتعليق، وربما إلى زيادة التمحیص والبحث ولعلّي أعود إليها بالنظر في مقتبل الزمن إن سمحت بذلك الأقدار، أما الآن فحسبي أنني لَبَيْت بطبعها رغائب إخواننا الكثرين من الشباب الناهض المستنير الذي لم أُخْطَّ كتابي إلا لأخاطب فيه حماس الفتوة، وأدعوه معي إلى أن نسلك بالأدب التونسي سبيل الحياة الجميل المحفوف بالأوراد والزهور.

الخيال

- نشأته في الفكر البشري.
- ما كان يفهم منه عند الإنسان الأول.
- انقسامه.

قد أراد النادي الأدبي لجمعية قدماء الصادقة أن تتحدث عن (الخيال عند العرب)، وقد لبّيتُ هذا الطلب لأنَّه صادف من نفسي هُوَ طالما نازعني إليه، ولل الحديث عن الموضوع وقفتُ منكماليوم موقفي هذا.

ولكن قبل أن أحدد الوجهة التي سأتبَعُها في هذا البحث، أريد أن أبسِط لكم رأيي في «الخيال» في نشأته، وفي انقسامه، وفي ما كان يفهم منه. فأقول: إن لي رأياً في الخيال لا أدرِّي هل تشاطرونني الإيمان بصحته، أم تؤمنون ببطلانه؟ ولا أعلم هل انفردت بالذهب إليه، أم سُبِقت إلى اعتقاده؟ ولكن الذي أدرِّي هو هذا: أنتي مؤمن أشد الإيمان بصحة هذا الرأي الذي أرْتَئيْه، ومُعتقدُ كل الاعتقاد أنه حق لا ريب فيه، وأنْتَي لهذا الإيمان ولهذا الاعتقاد أردت أن أعرضه عليكم بين يدي هذا الحديث. وهذا الرأي ينحصر في نقطٍ ثلاثة إنْ أَبَنَّاها أُثْرَقَ الرأي واتضح المراد.

النقطة الأولى: هي أنَّ الخيال ضروري للإنسان لا بد منه ولا غُنْيَة عنه، ضروري له كالنور والهواء والماء والسماء، ضروري لروح الإنسان ولقلبه، ولعقله ولشعوره، ما دامت الحياة حياة والإنسان إنساناً. وإنما كان كذلك لأنَّ الخيال نشأ في النفس الإنسانية بحكم هذا العالم الذي عاش فيه الإنسان وبدافع الطبع والغريزة الإنسانية الكامنة وراء الميل والرغبات، وما كان منشؤه الغريزة ومصدره الطبع فهو حي خالد، لا ولن يمكن أن يزول إلا إذا اضْمَحَّ العالم وتناشرت الأيام في أودية العدم.

النقطة الثانية: هي أن الإنسان الأول¹ حينما كان يستعمل الخيال في جمله وتراكييه لم يكن يفهم منه هاته المعاني الثانوية التي نفهمها منه نحن ونسميها (المجاز)، ولكنه كان يستعمله وهو على ثقة تامة لا يخالجها الريب في أنه قد قال كلاماً حقيقياً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. فهو حينما يقول مثلاً: (ماتت الريح) أو (أقبل الليل) لم يكن يعني منه معنى مجازياً، وإنما كان يعتقد أن الريح قد ماتت حقاً وأن الليل قد أقبل حقاً بـألف قدم وبـألف جناح. يدل لذلك ما في أساطير الأقدمين من أنهم كانوا يؤمنون بأن الريح والليل إلهان من الآلهة الأذكياء ... وتلك هي سُنة الأقدمين في ما حولهم من مظاهر الطبيعة ومشاهد الوجود ينفحون فيها من روح الحياة على ما يوافق مشارب الإنسان وطبيعة تلك المظاهر، حتى إذا ما استفادت (أنس الحياة) وأصبحت تشاركتهم في بأساء الدهور ونعمانها وتساهمنهم أفراح الوجود وأتراهه - على ما يخالفون - ذهبوا يقيمون لها طقوس العبادة وفرائض الإجلال، فإذا بها آلهة خالدة بين آلهتهم الخالدة ... وما أكثر آلهة الإنسان عند الإنسان ... وهذا أعظم دليل على أن الإنسان متدين بالطبع، فهو ظامئ إلى منبع الحياة الأول الذي كرعت منه الإنسانية على كر العصور مشاربها المختلفة ما بين صفو وعكر ... حتى إذا ظفر برُشْفة منه اطمأنَّ نفسه وقر ضميره.

فقدرأيتم هذا المجهود الخيالي العظيم الذي يبذله الإنسان لإرواء نفسه، وهو يحسب أنه الحق الأزلي الذي لا ريب فيه، وإلا فهل كان يطمئن إليه ويقيم له فروض العبادة وهو يعلم أنه من زخرف الخيال الشارد ووحي الأوهام المعربدة؟

النقطة الثالثة: هي أن الخيال ينقسم إلى قسمين: قسم اتخذه الإنسان ليتفهم به مظاهر الكون وتعابير الحياة، وقسم اتخذه لإظهار ما في نفسه من معنى لا يفصح عنه الكلام المأثور. ومن هذا القسم الثاني تَولَّد قسم آخر ولدته الحضارة في النفوس أو ارتقاء الإنسان نوعاً ما عما كان عليه، وهذا القسم الآخر هو الخيال اللغوي الذي يراد منه تجميل العبارة وتزييقها ليس غير. والقسم الأول هو أقدم القسمين في نظري نشوءاً في النفس؛ لأن الإنسان أخذ يتعرف ما حوله أولاً حتى إذا ما جاشت بقلبه المعاني أخذ يعبر عنها بالألفاظ والتراتيب، ولما مارس كثيراً من خطوب الحياة وعجم كثيراً من ألواء الدهور وامتلك من أَعْنَاءَ القول ما يقتدر به على التعبير عما يريد، أحس بدافع يدفعه إلى الأنفة في القول والخلابة في الأسلوب، فكان هذا النوع الجديد من الخيال، هذا النوع

الذي عمد إليه الإنسان مختاراً، فكان منه المجاز والاستعارة والتشبّه وغيرها من فنون الصناعة وصياغة الكلام.

ولزيادة البيان عن هذا الفكر الذي أريده أقول: إن الإنسان شاعر بطبعه، في جبلته يكمِّن الشعر وفي روحه يترنم البيان. إذ أيُّ إنسان لا يهتاجه النظر الساحر والمشهد الخلاب، وأيُّ امرئ لا يستخفه الجمال في أيٍّ مظاهره وفي أيَّة فتنته؟ ولكن الناس يتفاوتون في إدراك الجمال والشعور به على حسب قوة هاته الغريزة الشاعرة أو ضعفها، فمنهم من تضعف فيه هاته الغريزة ضعفاً بيئياً حتى توشك أن تموت؛ لأن نفسه قد استحوذت عليها غريزة أخرى شغلت كل ما بها من فراغ. ومنهم من تقوى فيه هذه الغريزة حتى تتمرد فتضطغى على كل ما عادها من الغرائز البشرية المتطاحنة. لأن النفس الإنسانية ضمamar رحيب تتقارع فيه الغرائز وتتصارع فيه الميل والشهوات، وبقوّة هاته الغريزة أو ضعفها يتفاوت الإحساس والشعور فيتفرجّر الشعر الحالد من بعض الأفئدة البشرية على حين أن الأخرى لا ترشح بغير الصديد. وتكتشف بعض النقوس عن عقريات جباره عاصفة على حين أن البعض الآخر لا يلد غير الغباوة المستخذية النائمة.

ولكن قوّة هاته الغريزة أو ضعفها هي في كثير من الأحيان وليدة الحوادث والظروف. فربَّ دمعة يائسة أيقظت ألف عاطفة نائمة وربَّ ابتسامة حالمه أهاجت سواكن الوجود ... وربَّ مشهدٍ رائع أحيا عبقرية خالدة، وربَّ فكرة واحدة صدعت أركان قلب كبير ... وهكذا هبط الإنسان هذه الأرض مُزَوِّداً بتلك الغريزة الشاعرة فكانت هي الأمل الجميل الذي ينير له مسالك العيش ويمهد له سبل الحياة. وكانت هي الخيبة القاتمة التي تقذفه في هُوَّة اليأس وتشقيه في نار الألم.

كذلك هبط الإنسان الأرض لا يملك غير حسنه ونفسه وغير قلبه وشعوره، أما عقله فما زال يحلم في مهد الحياة ... فكأنَّ له من مشاهد الكون ومظاهر الطبيعة ألغاراً غامضة ومعانٍ مستترة، تبدو له ملتقةً في ثوب من ضباب كما تبدو الذكريات القصيَّة في زوايا القلوب حتى إذا ما حاول أن يمسكها توارت عنه كما توارى الأشباح، وكان فيما بينها كالنائم السادر في أحلام الليل ورؤاه تبهجه هذه وتبكيه تلك وتتفزعه واحدة وتسكته أخرى، ولم يكن له من عقله في تلك الساعة ذلك العقل القوي الجبار الذي عَبَّ من نهر الحياة المندفع فاشتد أسره وتوثقت قواه، بل كان عقلًا ضعيفاً واهنًا متهدماً لم تضرسه الحياة ولا علمته الخطوب.

وما كان الإنسان بخاذل النفس ولا هامد الحس حتى يغضي على ما حوله زاهداً فيه ويقنع بالجهل الآخرين والصمت الكئيب، بل كان قوياً المشاعر متحفز الخيال. فذهب يعلل مظاهر الكون بما شاء له الشعر أن يذهب، وأخذ يفسر تعابير الطبيعة الداوية بما يملي عليه الخيال المرح والشعور النشيط، دون أن يعلق بوجهه قطُّ أنه سادرٌ في الخيال بعيد عن جدد الحقيقة، وإنما كان على ثقة ويقين من أن ما وصل إليه هو في الصميم من الحق وفي الحبة من الصواب، ومن هنا كانت بذور الأساطير الدينية الأولى تثمر في النفوس وكانت المعتقدات الوثنية تتكون في أعماق القلوب تكونَ الجنين في بطن أمه. وهذا هو منشأ الخيال في الفكر البشري القديم قبل أن تصقله الحضارة وتشذبه المدنية.

وكانت تعوزه الألفاظ أحياناً للتعبير عما يجيش بنفسه من فكر وعاطفة وشعورٍ ولدٍ، فكان يتخد من الخيال مطاباً لأغراضه وأجياداً لمعانيه دون أن يخطر بباله أنه استعمل تلك الجملة أو الكلمة في غير ما وُضعت له – كما يقول علماء البلاغة – لأنه واثق أنها مستعملة في وضعها الطبيعي الذي (لا تتجزء فيه) ولو شئت أن أسوق الكلمات تباعاً لهذا الغرض لضاق الوقت وما تم الحديث، ولكنني سأكتفي ببعض كلمات أتخذها دليلاً على مدعائي، من ذلك ما قدمته من قولهم: «أقبل الليل، وماتت الريح»، ومن ذلك «ابنة الجبل»، فإن هاته الكلمة يطلقها العرب ويريدون منها الصدى، وأنا أعتقد أن هذه الكلمة أسبق وجوداً في العربية من الصدى لأن المعاني الخيالية أقرب إلى ذهن الإنسان الأول من المعاني الحقيقية، وأعتقد أيضاً أن وضع هذه الكلمة كان يحسب أن الصوت الذي أجا به صوت جنِّية من بنات الجبال فسماه بهذا الاسم. وهل يُكُرُّ مثل هذا على عربي قديم لعله عاش قبل هذا العصر بآلاف القرون وبين أيدينا ما يؤيد ما أَدَعَتْهُ من أن الخيال يعتبر حقيقة في أول نشأته ولا يعد خيالاً، فإبني أعرف لحد الآن في بعض بوادي المملكة من لو سُلَّ عن الصدى لأخبر – بجد – أنه شيطان يهزاً بالبشر ويُسخر من أبناء آدم. وأعرف في بعض جهات الجنوب من يسمون الصدى: «حديدان» وإذا استفسرتهم عن (حديدان) هذا، نبؤوك أنه شيطان يسكن الجبال والأودية ... ومن ذلك كلمة «الريح» فإبني لا أشك أن أصل هذه الكلمة كان الروح وأن وضعها كان يعتقد أنها واحدة من الأرواح الخفية المتجلِّبة ثم وقع فيها التصحيف على تراخي الزمن حتى أصبحت «الريح»، يدل ذلك أنهم جمعوها على أرواح كما جمعوا الروح هذا الجمع وأنَّتوَ معناها كما أثثوا الروح بل وأنثوا جميع الكلمات التي تدل على معنى الريح. ثم ألا ترون هذا التقارب الكبير بين مرادفات الروح ومرادفاتها؛ فإنهم قالوا النسمة والنسيم وقالوا النفس والنفس، وليس

هذا بمستبعد عن الذهن البشري القديم، فإن من أساطير الإسكندرية: أن الزوبعة إله من الآلهة الأقوباء يسمونه: «آجير»، وقال توماس كارليل إن البحارة في جنوب إنجلترا لم يزالوا لعهده إذا أحسوا بواحد الزوبعة يقولون: «حذار! إن آجير قادم».

وصفوة القول أنَّ الإنسان مضطرب إلى الخيال بطبيعته، محتاج إليه بغير زنة؛ لأن منه غذاء روحه وقلبه ولسانه وعقله. وأن اضطراره إليه جعله في نظره الأول حقيقة لا خيالاً، وما أصبح يعرف الخيال من الحقيقة إلا بعد أن تطورت نظرته إلى هذه الحياة وأصبح يعرف أن الليل والنهر والعواصف والبحار ليست أرواحاً ولا آلهة، وإنما هي مظاهر لهذا النظام الإلهي العتيدي الذي يسخر كل شيء.

ولكنه رغم كل ذلك لم يزل بحاجة إلى الخيال لأنه وإن أصبح يحتمكم إلى العقل ويستطيع التعبير عن خوالج نفسه فهو لم يزل يحتمكم إلى الشعور، وسيظل كذلك لأن الشعور هو العنصر الأول من عناصر النفس، واحتكماته إلى الشعور يدفعه ولا بد إلى استعمال الخيال؛ لأن الشعور أيها السادة هو ذلك النهر الجميل المتدافع في صدر الإنسانية منذ القدم، متربناً بأفراحها وأتراحها، متغنىًّا بميولها ورغباتها، جائشاً بكل ما لها من فكر وعاطفة، ومن ضجة وسكون. ومن هذا النهر الجميل تتولد خرائد الفكر وبنات الخيال، كما نشأت «فينيس» من أمواج البحار الناصعة، وعلى صفاتيه يُرثَّلَنَّ للبشرية تراثيم الحياة، ويُقْسِرُّنَّ تعبير الوجود، ويفكرون في مأسي الحياة والموت وفي معانٍ الخلود والعدم.

أجل! فهو رغم كل ذلك لم يزل بحاجة إلى الخيال لأن اللغة مهما بلغت من القوة والحياة فلا ولن تستطيع أن تنقض - من دون الخيال - بهذا العبء الكبير الذي يرهقها به الإنسان، هذا العبء الذي يشمل خلجان النفوس الإنسانية وأفكارها وأحلام القلوب البشرية وألامها وكل ما في الحياة من فكر وعاطفة وشعور، بل إنها لا تقدر على الاضطلاع بهذا الحمل الثقيل حتى بالخيال وإنما الخيال يمدّها بقدرة ما كانت لتجدها لولاه.

وكيف يتصور من هذه اللغة الخامدة التي منشؤها هاته المادة الباردة أن تحمل بين جنبيها ذلك اللهيب المقدس المتدافع من أبعد قرار في النفس الإنسانية الخالدة بكل ما فيه من توهج وتألق وضياء؟

فهل تريدون أن تسمعوا من الصخرة الصماء أناشيد الملائكة؟ أم هل تريدون أن توقعوا على ناي من القصب أنغام الفلك؟!

إن اللغة البشرية لأصغر وأعجمٌ من أن تحمل مثل هذه الأمانة السماوية مهما بلغت من الرُّقُّي والتقديم لأنها ضيقٌ محدودة فانية والنفس الإنسانية فسيحة لا نهائية باقية. وستظل اللغة في حاجة إلى الخيال لأنَّه هو الكنز الأبدِي الذي يمدُّها بالحياة والقدرة والشباب، ولكنه مهما أمدَّها بالقدرة والشباب فستبقى عاجزة عن استيفاء ما في النفس الإنسانية من عمق وسعة وضياء ...

وقد قلت من قبل إن الخيال ينقسم في نظري إلى قسمين: قسم اتخذه الإنسان لا للتنويق والتزويق ولكن ليتقهم من ورائه سرائر النفس وخفايا الوجود، وهو هذا الخيال الذي نلمح من خلفه ملامح الفلسفة وأسرة الفكر. ونسمع من ورائه هدير الحياة الكبرى يُدُوِّي بكل عنف وشدة وهو هذا الفن الذي تندمج فيه الفلسفة بالشعر ويزدوج فيه الفكر بالخيال. وقسم اتخذه الإنسان أولاً ليعبر به عن ذات نفسه حين لا يجد لها مسامغاً في الحقيقة العارية، ثم تطور هذا النوع مع الزمان فكان منه هذا النوع الذي نعرفه والذي أُلْفت فيه كتب البلاغة على اختلافها. قلت هذا من قبل ولكنني أردت أن أقول الآن إنني أسمى هذا القسم الأول (بالخيال الفني) لأن فيه تنطبع النظرة الفنية التي يلقاها الإنسان على هذا العالم الكبير، وأسميه (بالخيال الشعري) لأنَّه يضرب بجذوره إلى أبعد غور في صميم الشعور. أما القسم الثاني فإنني أسميه (الخيال الصناعي) لأنَّه ضرب من الصناعات اللفظية، وأسميه (الخيال المجازي) لأنَّه مجاز على كل حال سواء قصد منه المجاز كما عندنا الآن أم لم يقصد منه كما عند الإنسان القديم. وبعد هذه الكلمة فأي نوع من أنواع الخيال أريد أن أبحث عنه عند العرب فالخيال نواحٍ كثيرة. هل إنني سأبحث عن الخيال الفني أو عن الخيال الصناعي؟ وهل إنني سأعرض له من وجهته الصناعية البحثة التي تتناول المجاز والاستعارة والتتشبيه ومبلغ قوة العرب في هذا الضرب من الكلام؟ أم إنني سأبحث في المجاز والاستعارة والتتشبيه من ناحية أخرى هي تطور هاته التَّمَجُّزَاتِ مع العصور واتباعها سنة النشوء والتدريج من حسن إلى أحسن ومن صالح إلى أصلح وأثر الشعراة والكتاب في تطور هذه المجازات ورقيتها واصطبااغها بألوان العصور المختلفة التي ارتقت معها في سلم الحياة، أم ماذا؟

لا أريد أن أعرض للخيال من وجهته الصناعية، لا من هاته الناحية ولا من تلك؛ لأنَّ مثل هاته المباحث هواتها وأنا لست منهم — والحمد لله — ولأنَّ كُلَّاً من هاتين الناحيتين جامد جافٌ في نظري لا غنية فيه ولا جمال، ونفسِي لا تطمئن إلى مثل هاته المباحث الجافة ولا تحفل بها. ثم لأنَّ مثل هاته المباحث لا يمكننا أن نستشفَّ من ورائها خوالج الأمة ولا

مُشاعر الشعب ولا نستطيع أن نلمس في جوانبها ذلك النبض الحي الخفوق المترنم بأنباء النفس الإنسانية وأهواها، ولا أن نعرف مقدار شعورها بتيار الحياة كعضو حي في هذا الوجود وأي فائدة من بحث قائم لا ينير سبيلاً؟

إنما أريد أن أبحث في الخيال من ذلك الجانب الذي يتكشف عن نهر الإنسانية الجميل الذي أوله لا نهاية للإنسان وهي الروح وأخره لا نهاية الحياة وهي الله. أريد أن أبحث في الخيال عند العرب من ذلك الجانب الذي تتدفق فيه أمواج الزمن بعزم وشدة، وتنهمز فيه رياح الوجود المتداوحة مجلة داوية جامحة، وتنتعاقب عليه ظلمات الكون وأضواوه وأصبحت الحياة وأمساها؛ ذلك الجانب الذي يستلهم ويستوحى، ويحيا ويشعر، ويتذمر ويفكر، أو بكلمة مختصرة إنني أريد أن أبحث عند العرب على ما سميته خيالاً شعرياً أو خيالاً فنياً.

فالخيال بهذا المعنى الذي بسطته وعلى هذا اللون الذي تكلمت عنه هو الذي أريد اليوم أن أتلمسه في جوانب الحياة الفكرية العربية، وهو الذي أريد أن نتعرف إليه في ما أبقى لنا أجدادنا الأقدمون من تراث روحي ضخم وثروة أدبية طائلة حتى نعرف ما هي عليه من قوة وإنتاج، ولأجل هذا فإنني لا أقصص بحثي على ما أبقاه العرب من شعر ونشر ليس غير؛ بل إنني سأجتاز هذين إلى قسم آخر هو كالشعر صورة مجرية من صور الخيال ولون قوي من ألوان التفكير الإنساني في دور من أدوار الحياة. بل ربما لا أغلو في كثير ولا قليل إن قلت إنه أقوى دلالة من الشعر على هذا الضرب من الخيال الذي جئت للحديث عنه. أما هذا القسم الآخر فهو الأساطير وأما أنه أقوى دلالة من الشعر فلأنني أذهب إلى أن الأساطير هي الكلمة الأولى التي توجسها الإنسان من تعابير الحياة وحاول أن يتفهم منها معاني هذا الوجود المتناقض وأنها هي الصوت الأول الذي رن بين جنبيه من أصوات الفكر وأجراس الشعور، أو بعبارة أدنى إلى الذهن إنها طفولة الشعر في طفولة الإنسان وما كان مصدره الطفولة الساذجة فهو أدنى إلى الطبع وأدل على النفس من أي شيء آخر لأنه يلقى بريئاً من كل كلفة أو تَصْنُع بعيداً عن كل زخرف أو تمويه، وعلى هذا الضوء الذي أرجو أن ينير لنا سبل الحق ويمزق أمامنا غياب الشك والجهالة نحاول أن نمشي في هذا الدرب المترعرج الملتوى لعلنا نظفر خلف هذه الظلمات المتداجية والضباب المركوم بشمس الحقيقة الساطعة وفجر الأمل المنشود، وإن كنت لا أدرى هل إننا سنسمع غمامغ الخيال الشعري في صحراء العرب وسنلمح طيفه الجميل هازجاً في تلك الجزيرة النائية؟ أم إننا لا نبصر غير ظلٍّ تائهاً تحت أشعة الشمس المحرقة ولا نتبين

الخيال الشعري عند العرب

إلا آثار قدميه فوق الرمال؟ ومن يدرى ...؟ ولكن فلنحتقب على كل حال حقيقة الصبر
والأمل في هاته الرحلة الغامضة ولنبدأ سيرنا على اسم الله.

هوماش

(١) نريد بالإنسان الأول حيثما أطلقناه، ذلك الإنسان الذي ما زال على فطرة الطبيعة
الأولى سواء في ذلك من أظله الدهر الدابر أو من ما زال يستنشي نسيم الحياة.

الخيال الشّعري والأساطير العَرَبِيَّة

لا يعرف التاريخ من الأساطير العربية إلا شيئاً يسيراً لا يستطيع باحث أن يطمئن إليه بمفرده كل الاطمئنان لاستخلاص منه رأياً فاصلأً أو نتيجة جازمة، وهو إلى ذلك مضطرب كل الأضطراب مختلط كل الخلط لا يحده نظام ولا يسوسه قانون ولا يجمعه كتاب خاص كما في أساطير الأمم الأخرى، وإنما هو نبذ متفرقة في كثير من كتب الأدب والأخبار لا يمكن جمعها إلا بعد جهد كبير، بعضها له اتصال بعقائد العرب قبل الإسلام وبعضها له اتصال بعواوينهم وبالبعض الآخر يتصل بتاريخهم القديم. وقد كنت أول الأمر أحمل الوزر على الرواة الذين أرددوا هذا الفن ولم يُعنوا به عنايتهم بالشعر والأمثال الآن؛ فقد أصبحت أعتقد أن ما نقله إلينا الرواة هو كل ما عند العرب من هذا الفن وأن العرب أنفسهم ما كانوا يقيمون لهذا الفن وزناً، ولو لا ذلك لنظموا أساطيرهم كما نظمها غيرهم من الأمم القديمة كاليونان والرومان وقدماء المصريين. ولكن شعراء الجاهلية يتغنون بها في أناشيدهم وأشعارهم كما كان الشعراء اليونان والرومان يتغنون بها قبل مجيء المسيحية.

وهذا الشيء اليسير الذي حدثنا عنه التاريخ من الأساطير العربية ينقسم في نظري إلى قسمين أصليين: القسم الأول الأساطير الدينية، ويندرج تحت هذا القسم ما كان من قبيل العوائد لأن أكثر العوائد إنما هي عقائد متحجرة بمحض فعل الزمان. القسم الثاني: الأساطير التاريخية، وهي تلك الأخبار التي لها ارتباط بالتاريخ العربي القديم. وأراني بالرغم عن قلة الأساطير العربية واضطراها ماضياً بطبيعة البحث إلى أن أقتصر على القسم الأول دون أن أغعرض للقسم الثاني ببحث أو تمحيص، وذلك لأن غايتي من البحث في الأساطير العربية إنما هي معرفة حظها من الخيال الشعري قلةً وكثرةً، وقد علمتم من كلمتي السابقة أنني أعني بالخيال الشعري ذلك الخيال الذي يحاول الإنسان أن يتعرف

من ورائه حقائق الكون الكبرى ويتعملق في مباحث الحياة الغامضة، ولا أحوال أن من العقول أن يوجد مثل هذا الخيال في الأساطير التاريخية، لأن هذا النوع وإن كان من صنعة الخيال إلا أنه ليس من عمل الخيال الشعري الذي أريد الحديث عنه؛ ولذلك فإنني لا أعرض مثل هذه القصص الطويلة التي يروونها عن عمرو بن عدي وأضرابه ومن تخطفthem الجن تعيشًا أو انتقامًا ولا لمثل هذه القصص والأقوايل التي يحكونها عن شقٌّ وسَطِيحٌ ولا لهاته الأحاديث المستفيضة عن أيام العرب وحروبهم ولا لمثل هذه هاته الأخبار الدموية التي يحكى عنها الرواة عن قبيلتي طسم وجidis معلقين بها فناء هاتين القبيلتين. كل هذا وأشباهه لا أعرض له بشيء من البحث، أما الذي سأبحث فيه فهو الأساطير الدينية وما مُتَّ إليها بسبب مَتِين.

ورأي في هذه الأساطير هو أنها لا حظ لها من وضاعة الفن وإشراق الحياة، وأن من الحال أن يجد الباحث فيها ما ألف أن يجده في أساطير اليونان والروماني من ذلك الخيال الخصب الجميل ومن تلك العذوبة الشعرية التي تتجذر منها الفلسفة الغضة الناعمة تفجر المنبع العذب، بل إنه ليعجزه أن يلْفِي فيها حتى تلك الفلسفة الشعثاء الكالحة التي تطالعه في أساطير الإسكندرية. فالآلهة العربية لا تنطوي على شيء من الفكر والخيال، ولا تمثل مظهراً من مظاهر الكون أو عاطفةً من عواطف الإنسان، وإنما هي أنصاب بسيطة ساذجة شبيهة بلعب الصبية وعرايس الأطفال، وبقية الأساطير الدينية لا تفصح عن فكر عميق أو شعور دقيق ولا ترمز لمعنى من المعاني السامية، وإنما هي أدنى إلى الوهم منها إلى أي شيء آخر، لا أستثنى من ذلك إلا أسطورة النجوم فإن عليها شيئاً من وضاعة الشعر ونضارة الخيال.

فقد عبد العرب أرباباً متفرقةً وألهة كثيرة كغيرهم من الأمم الوثنية القديمة، ولكنهم لم يعبدوا تلك الآلهة بعد تفكير عميق في ظواهر هذا الوجود كما فعل غيرهم من أمم العالم، وإنما كانت عبادتهم على أحد ضربين: إما تأليه الأجداد أو تقليد غيرهم من الأمم في عبادة آلهتها، وبعبارة علمية: إن الباущ لتلك العقيدة الوثنية في أنفس العرب لم يكن هو «التشخص» أي أن يخلع الإنسان على ما حوله من الأشياء ثوب الحياة وينظر إليها كأرواح حية نامية تشاركه الحس والحياة، وإنما كان الباущ عليها (عبادة الأموات) في الأكثر واحتذاء الأمم الأخرى التي سبقتها إلى التدين في معتقداتها الدينية. واتباع العرب لغير التشخص هو السبب في أن أساطيرها لم تكن مشتملة على شيء من الخيال الشعري، ولكن قد يسأل السائل: وما الذي دفع العرب في هذه الطريق التي بعدها بهم عن الخيال

الشعري بعدها كبيراً؟ والجواب هو أن هذا له علاقته بالروح العربية التي سأتكلم عنها فيما بعد.

وهذا الذي قلته عن الآلهة العربية يظهر لأول وهلة من معرفة الآلهة العربية والأساطير التي يرونها عنها.

فقد عبد العرب إساف ونائلة وهم صنماني زعموا أنهما رجل وامرأة من جُرْهَم فَجَرَا بالكعبة فمسخهما الله حجرين! وإنني لا أفهم كيف عُبِدَا وقد حل بهما هذا العذاب، اللهم إلا أن يقال إن العطف عليهما قد استحال في النفوس إلى حُبٌ ثم إلى إجلال ثم إلى عبادة على توالى العصور وتراخي الزمن. وعبدوا اللات والعزي، والرواوة يختلفون فيهما اختلافاً كبيراً: فمنهم من يزعم أنهما نخلتان لَهُمَا العرب، ومنهم من يزعم أنهما صنماني لرجلين صالحين كان أحدهما يلْتُ السويق للحجيج، ومنهم من يزعم أنهما صنماني جاء بهما عمرو بن لُحْي. وعبدوا منها، وهو صنم كان بين مكة والطائف. وعبدوا يغوث ويعوق وسواهاً ونصرًا وهي من آلهتهم القديمة التي نصبوها لقوم من صالحائهم بعد موتهم على سبيل الذكرى فانقلبت إلى عبادة بطول الزمن.

وعبدوا المشترى فقالوا: (عبد المشتري)، وعبدوا الشمس فقالوا: (عبد شمس)، وسموها الآلهة وزعموا أنها تهب الأسنان جمالاً وحسناً، فكان صبيهم إذا أتغر أَخْذَ سِنَّهُ بين السبابنة والإبهام واستقبل الشمس قائلاً: «يا شمس! أبدلني بسن أحسن ولتجِ في ظلمها آياتك!»

قال طرفة:

أُسف ولم تقدم عليه بأشمد سقطه إِيَّاه الشَّمْسِ إِلَّا لِثَاتِهِ

وقال غيره:

أَبْدَلَتْهُ الشَّمْسُ مِنْ مَنْبِتِهِ بِرَدًا أَبْيَضَ مَصْقُولَ الأَشْرِ

وأحسب أن هاته العقيدة قد انقلبت إلى عادة ظلت حية إلى ما بعد الإسلام وأن بعض العرب جاء بها إلينا، وهذا ما أُعَلَّ بـه وجود هاته العادة عندنا فإن كثيراً من جهات المملكة يأمرون أطفالهم عند الإثغار أن يفعلوا مثل هذا الفعل ويقولوا قولًا قريباً منه. ولا أشك أن عبادة المشترى والشمس قد أخذها العرب عن الأشوريين كما أخذوا عبادة تالب وأضر وهبتوна عشرة.

فقدرأيتم أن آلهة العرب لم تخرج عن ذِيْنَكَ النوعين الآتَيْنِ: تأليه الأموات أو تقليل الأمم الأخرى، وأنها لهذا لم تكن مشتملةً على فكر أو خيال وإنما هي أصنام جامدة لا تصور لوناً من ألوان الحياة. حتى إن عشتُوت وهي إلهة الحب والجمال عند الآشوريين التي كانوا يصفونها بأنها موقدة شعلة الحياة وحارسة الشبيبة، والتي كان الشبان والعذارى يرتلُون أغاني الحب تحت قدميها، لَمَّا عبداها العرب باسم عثُر لم يعبدوا فيها ذلك المعنى العميق الذي يصل الحب بالجمال، وإنما عبدوا فيها صنماً لا يرمز إلى شيء ولا ينم عن فكر.

ومن أساطيرهم التي كانوا يدينون بصحتها: الغول، وهي حيوان خرافي يزعمون أنه كريه المنظر شنيع الخلقة يألف الغيران الموحشة والفيافي المقرفة ليضلل الناس ويلهوا بالجماجم، ويدعى أبطالهم أنهم شاهدوها وحاربوها فانتصروا عليها، وقد أُولع تأطُّب شرّاً بوصفها والتحدث عنها في شعره ومن ذلك قوله:

يسهب كالصحيفة صحصحان أخو سفر، فخلٍ لي مكاني! لها كفي بمصقول يمانٍ صريعاً لليدين وللجران مكانك! إبني ثبت الجنان لأنظر مصبحاً ماذا أتاني كراس الهر مشقوق اللسان وثوب من عباءة أو شنان	وإنني قد لقيت الغول تهوي فقلت لها: (كلانا نضوَّ أينِ)، فشدّدت شدة نحوِي، فأهوى، فأضربها بلا دهش فَحَرَّتْ فقالت: «عُدْ» فقلت لها رويداً فلم أنفك متكتئاً عليه إذا عينان في راس قبيح وساقاً مخدع وشواة كلب
--	--

ومنها الصدى أو الهمة، وهي طائر خرافي يزعمون أنه يخرج من رأس القتيل الذي طلَّ دمه ويقف على قبره هاتفاً: «اسقووني فإبني صديّة!» ولا يزال كذلك إلى أن يؤخذ بثار القتيل فيختفي الطائر ثم لا يعود، قال شاعرهم:

له هامة تدعو إذا الليل جنها «بني عامر! هل للهلالِي ثائر؟»

ومنها شياطين الشعراء، وذلك أنهم كانوا يعتقدون أن لكل شاعر شيطانه الذي يوحى إليه الشعر، ويررون أخباراً كثيرة عن هؤلاء الشياطين، فكان صاحب أمرئ القيس

لافظ بن لاحظ، وصاحب عبيد بن الأبرص هبيد بن الصلام، وصاحب الأعشى مسحل السكران بن جندل، وصاحب زياد الذبياني هاذر بن ماذر، وصاحب الكميت مدرك بن واغم ابن عم هبيد صاحب عبيد بن الأبرص.

ومنها أسطورة النجوم whom على خلاف فيها، فمنهم من يقصها على هذا النحو وهو: «أن سهيلًا وأختيه العبور والغميساء كانت ثلاثة مجتمعة ثم انحدر سهيل إلى ناحية اليمين بعد أن خاض نهر المجرة وتبعته إحدى أختيه حتى غمضت عينها فسميت غميساء». ومنهم من يرويها على وجه آخر هو «أن سهيلًا كان فارسًا جميل الطلعة ساحر المنظر فخانه الحظ في معركة سماوية وراء المجرة فخرّ صريعاً تكسوه الدماء الفانية فراغ أختيه مصرع أخيهما الباسل فعبرت إليه إدحاهما نهر المجرة وظللت واجمة عند رأسه وفي جفنيها عبرة حائرة: فسميت عبوراً. وقد بالثانية الرزء الفادح والحزن المرير عن اللحاق بأختها فانهلت تذرف الدموع حتى غمضت عينها الباكية ... فسميت غميساء».

فهلرأيتم فيما تلوته عليكم من أساطير العرب واحدة تشرق بالفن والحياة كما يشرق الكوكب بالنور الجميل والوردة بالعطر الأريح؟ وهل وجدتم فيها جمالاً أكثر من هذا الحديث الخيالي الوضيء الذي يروونه عن سهيل وأختيه؟ وكذلك كانت أساطير العرب، وثنية جامدة جافية لم تفقه الحق ولا تذوقت لذة الخيال، وأوهام معربدة شاردة لا تعرف الفكر ولا اشتغلت على شيء من فلسفة الحياة ... أما أساطير الأمم الأخرى فقد كانت مشبعة بالروح الشعرية الجميلة زاخرة بفلسفة الحياة الفنية الراقصة في ظل الخيال ... فقد أخذ اليونان كثيراً من عقائدهم وأساطيرهم عن الآشوريين كما أخذ العرب أنفسهم، ولكنهم طبعوها بطبع حياتهم الخاصة فكانت رشيقه شعرية ساحرة أكثر مما كانت عليه عند الآشوريين، فهم أخذوا عن الآشوريين عبادة إلهة الحب والجمال: «عشتروت» كما أخذها العرب عنهم، ولكن العرب عاملوها كما يعاملون أنصافهم التي لا ترمز إلى فكر ولا تمثل عاطفة، فكانت صنماً حجرياً جاماً تحجبه الكآبة الصماء والسكون الأليم. أما اليونان فقد اتخذوا لها اسمًا آخر هو: «أفروديت» ونسجوا حول نشأتها أساطير شعرية لم يعرفها الآشوريون، فكانوا يزعمون أنها خلقت من أمواج البحر! واتخذوا إلهًا للحب سموه: «إيروس» وزعموا أنه ابن أفروديت وأن له جناحين ذهبيين وأنه يحمل أبداً سهاماً حادة ومشاعل تلتهب ...! أرأيتم هذا العمق في الفكر وهاته السعة في الخيال في الأسطورة التي تزعم أن أفروديت قد خلقت من أمواج البحر؟

أي شيء أنسع من أمواج البحار وأطهر؟ وأي شيء أعمق من البحر؟ وأدوى من لحج اليم بمعانى الحياة؟ وأي شيء أجمل من البحر في عمقه وسكونه؟ وأقوى من البحر في ثورته الطاغية؟ كذلك الجمال، فيه من القوة والعمق ما في الحياة التي أشأنه. وكذلك تخلق ربة الجمال من أمواج البحار التي تتمثل فيها قوة الحياة وعمقها وطهارتها. ثم ألا ترون هاته الأسطورة الأخرى التي تجعل من الحب طفلاً جميلاً نبيلاً أنجبته إفروديت يتألق في منكبيه جنادح الساحران، ويحمل في راحتيه نباله الحادة ومشاعله النارية؟ ألا تحسون بأمواج الخيال فيها تلاعب شاطئ الحقيقة؟ ترى هل كانت الإنسانية تعرف الحب لو لم تعرف الجمال؟ وهل كان الحب في الحقيقة وعند النفس إلا طفلاً مسلحاً... له غرارة الطفولة وطهارتها الساذجة، وله طيشها وتجنيها، وله مشاعله النارية التي قد تنير وجوه الدهر وقد تحرق آمال القلوب؟

وهكذا كانت آلهة اليونان وأساطيرهم عنها: آراء شعرية يتعانق فيها الفكر والخيال، فكل آلهة رمز لفكرة أو عاطفة أو قوة من قوات الوجود، وكل أسطورة صورة شيقية من صور الشعر يقرؤها الباحثون فيحسنون أنها صادرة عن مخيلة قوية وإحساس فياض يشمل العالم ويحس بأدق أنباض الحياة. فكما أنهم قد جعلوا للحب إلهًا وللجمال آلهة، وكذلك جعلوا للحكمة آلهة وللشعر والموسيقى إلهًا ولغير هذه من المعانى العميقية ومظاهر الكون الراةعة أرواحاً وحياة تُحس وتُشعر بحيث كانوا ينظرون إلى الوجود من خلال أساطيرهم ونظرة فنية تحس بتيار الحياة يتدفق في كل كائن ويستجيش في كل موجود. وإنني لأكتفي بواحدة من أساطيرهم تبين لكم مذهبهم في الوجود، فقد كانوا يعتقدون أن الصدى جنية من بنات الجبال والأودية، وأنها كانت خلابة المنظر والحديث، فمررت بها يوماً «هيرا» وكانت ذاهبة لتفاجئ زوجها مع بعض عشيقاته في إحدى مقاصير الأولنib، فاستهواها صوتها حتى فاتتها الغرض وفرت العشيقات إلى مأويهن، فتمكّن نفسها الغضب على الصدى فسلبتها قوة الكلام إلا إعادة ما تسمع، فأصبحت من ذلك الحين آلة حائرة تتلقى الأصوات لترجعها كأنّات الألم. تلك كانت أسطورة اليونان عن الصدى. أما العرب فالبرغم عن أنهم يسمون الصدى: «ابنة الجبل» فإنهم لم يؤلفوا أسطورة عنها تتغنى بوحشتها وانفرادها بين الجبال وتترنم بخلجان قلبها بين الغيران والأدية.

وكذلك كانت أساطير الإسكنديناف،¹ وبالرغم عن أنها جافية كالحة لا حظ لها من رقة أساطير اليونان وخلابتها، فإنها تأخذ من الفلسفة والشعر بحظ وافر، فمن

الخيال الشعري والأساطير العربية

أساطيرهم: أنهم كانوا يرون الحياة شجرة قوية راسخة تضرب بعروقها في مملكة الموت وتنتشر بفروعها في آفاق السماء وعند أصلها في مملكة الموت يجلس الأمس واليوم والغد يرثون جذورها من البئر المقدسة وهي دائمًا تورق ثم تزهر ثم تثمر ثم يجف ما عليها من ورق وزهر وتمر ليهوي إلى مملكة الموت حيث يجلس الأمس واليوم والغد. فهلرأيتم فيما نظم الشعراء وكتب الكاتبون أعمق خيالاً وأصدق تصويراً للحياة من هذه الأسطورة؟ وهلرأيتم واحدة من أساطير العرب تدانيها سعة في الفكر وغزاره في الخيال؟

هوامش

- (١) سكان جزيرة سيلاند الأقدمون.

الخيال الشعري والطبيعة في رأي الأدب العربي

أما ذهبتم في يوم من أيام الربيع الحالم إلى بعض ضواحي المدينة، حيث البرية المهتزة الناضرة والغاب الموئق الجميل؟ أمارأيتم ذلك البلبل الأنثيق المتنقل بين الغصون المورقة، يتَرَنَّم بأغاريده الرقيقة الشجية؟ أما أبصرتم تلك القُبَّرة الرشيقه المتخططة بين مخاوف الأشجار وحول مسارب الحقول تتغنى بتلك الأنماض العذبة الطاهرة؟ أما شاهدتم في ضحوة النهار تلك الفراشة الجميلة ترفرف حول الأعشاب البليلة، وتلك النحله الهاجرة تحوم بين الزهور السكري بأنوار النهار؟ أما ساقطت إليكم ذات يوم نسمات المساء الوادعة ذلك الصوت الفضي الجميل المتجاوب في ظلام الغاب؟

ثم أما أحستتم إذ ذاك وأنتم بين أحضان الطبيعة بذلك الشعور القوي الغامض التَّمَل يستحوذ على مشاعركم ويستولي على نفوسكم فيجعلها أدنى إلى الخلود منها إلى هذا العالم الفاني؟ ستقولون: بلى! ولكن أي شيء هو هذا الذي حَرَّك في نفس البلبل حب النشيد فانطلق يغنى بين الغصون المزهرة، وداعب قلب القُبَّرة الصغيرة فاندفعت تتغير راقصة بين الحقول، وأثار الفراش فرفرف بين الشقيق والأحقوان، وأهاج النحلة فانطلقت تدمدم فوق أعشاب الربيع باحثة عن رحيق الورود. وأيقظ في أعماقكم ذلك الإحساس المبهج للذين؟ أي شيء يا ترى هذه القوة الساحرة التي تسکر كل شيء وتعيث بكل شيء؟ إنها هذا الروح الإلهي النبيل الذي تبصرونـه في السماء والماء والنور والفضاء، وفي الوردة الناضرة والنسمة الطائرة وفي حلة الموج ووميض النجوم. إنه الجمال الخالد المعبد الذي أحس به أهل بابل فعبدوه في (عشتروت) وشعر به اليونان

فقد سوه في (أفروديت) واستفز قلوب الرومان فمجدوه في (فينيس) وأقامت له الإنسانية كلها معابد المجد في أعماق القلوب ...

فالجمال هو الذي نَبَّهَ الطائر فغرد وأيقظ الفراش فحوم واستخف النحلة فطافت بين الرياض واتخذ من أنفسكم هيكلًا شعريًّا تعبدونه فيه وأنتم لا تشعرون. والجمال هو الذي أنطق شعراء الوجود بتلك الأناشيد الخالدة المتعنية بجلال الكون ومجد الحياة.

والجمال هو الذي مهد للإنسانية هذا السبيل الذي تضرب فيه واستثار أفكار الجبابرة من مرافق النسيان.

ولولا هذا الجمال المبني في مظاهر الكون وطواياه لاتخذت الإنسانية سبيلاً آخر غير هذا الذي تعرفه ولحرُم العالم من ثمار خالدة أنتجتها العقول ...

وبعد، فما الذي أريد قوله من وراء هذا الكلام؟ أريد أن أقول إن مثل هذا الجمال الطبيعي الذي يستفز كوامن الحس ويهز أدق أعلاق الشعور والذي عرفتم أثره في نفوسكم كلما خلوت إلى أحلامكم بين أحضان الطبيعة. أقول إن مثل هذا الجمال الطبيعي هو القسطاس العادل الذي ينبغي أن توزن فيه نفسيات الأمم وشاعريات الشعوب ليعلم ما هي عليه من قوة وضعف ومن صحة أو فساد، وأن على حسب ما في الإقليم من جمال وروعه تكون شاعرية الأمة، فإن كان وسطها الطبيعي بهيجاً نصيراً كانت شاعرية الأمة خصبة منتجة، وإن كان كالحَا متشعراً كانت كزة مجده. بل أزيد: أن على حسب طلاقة الجو أو قطوبه تكون نفسيات الأمم والشعوب، فإن كان الجو طلاقاً ضحوباً كان روح الأمة مفراحاً مرحًا، وإن كان الجو جهماً عبوساً كان روح الأمة داجياً مكتتبًا. ولماذا لا يكون للوسط الطبيعي أثره الفعال في تكوين نفسيات الأمم وطبعها على غراره، وقد تحقق العلماء أن له الأثر القوي في خلق المزاج الفردي وتكونيه؟

وإذا فماذا يمكنني أن أقول عن الأمة العربية إذا أخذت هذا القياس وطبقته عليها ناظراً إلى الوسط الطبيعي الذي عاشت فيه، لا يمكنني أن أقول إلا أن شاعريتها ستكون شبيهة كل الشبه بالوسط الطبيعي الذي نَمَتْ وترَدَّجَتْ فيه. فيما أن الأمة العربية قد عاشت في أرض محرومة من هذا الجمال الذي يستفز المشاعر ويؤجّج الخيال لأنها قطعة عارية قاحلة لا يعترض العين فيها غير الموامي المقفرة الموحشة والصحابي الضامية المترامية يخطف في حواشيها السراب، وقد يعثر الطرف فيها على رقعة يهتز فيها النبات أو جدول يتذبذب بين الرمال أو غدير نائم بين الصخور العارية. بما أن الأمة العربية قد

الخيال الشعري والطبيعة في رأي الأدب العربي

عاشت كذلك فينبغي أن تكون شاعريتها قريبة من هذه الأرض كل القرب فيها ما فيها من ضياء وإشراق ومن بساطة وسذاجة، وقد عرفتم من قبل كيف كانت أساطير هاته الشاعرية، والآن نريد أن نعرف كيف كانت الطبيعة في نظر هذه الشاعرية وهل كان لهاته النظرة من الخيال الشعري حظٌ وافر أم لم يكن، فلأقول: أهم الأدوار التي ينقسم إليها الأدب العربي أربعة: الدور الجاهلي والدور الأموي والدور العباسي والدور الأندلسي، وفي هاته الأدوار الأربع سيكون بحثي عن الطبيعة وحظها من الخيال الشعري.

أما الدور الجاهلي والدور الأموي فقد كانا خاليين أو كالخاليين من هذا الشعر الذي يتغنى بمحاسن الكون ومفاتن الوجود ويشبّب بجمال الطبيعة وسحر الربيع، أقول أو كالخالي لأننا نجد في شعر هذين العصرین شيئاً من ذلك ولكنـه نادر كل الن دور، ثم إنه على قلته وندوره لم يكن من هذا النوع الذي يشتعل خيالاً وحساً ويتألق جمالاً وفناً، والذي تحس النفس من ورائه بنشوة الشعر وتلهب العاطفة؛ لأن الشاعر لم يكن يذكره في القصيدة لأنـه استغوى نفسه واستهوى شعوره، بل لأنـه قد أتى به جميل السيل وفيض الكلام، ولولا الاستطراد وسوق الحديث لما ذكره. كان يعنـه وصف محبوبـه أو رائحتـها فلا يجد وسيلة إلى ذلك إلا أنـ يقول كما قال الأعشى:

حضراء، جاد عليهـا مسبـل هطل
مؤزر^٢ من عمـيم النـبت، مكتـهل
ولا بأحسنـها إذ دـنا الأصل

ما روضـة، من رـياضـ الحـسن، معـشـبة
يضاـحـكـ الشـمـسـ منها كـوـكـبـ^١ شـرقـ
يـومـاـ بأـطـيـبـ منها نـشـرـ رـائـحةـ

أو يقولـ كما قالـ كثيرـ عـزـةـ:

فـما رـوضـةـ، زـهـراءـ، طـيـةـ الثـرىـ،
يـمجـ النـدىـ جـثـجـاثـهاـ، وـعـارـهاـ^٣
إـذاـ أـوقـدتـ بـالـمـنـدـلـ الرـطـبـ نـارـهاـ

أو يستعيدـ بـذاـكـراتـهـ ماـ مـرـأـهـ لـهـ فيـ رـيقـ العـمرـ وـانـلـاجـ الشـيـابـ منـ لـذـةـ شـائـقـةـ وـاغـبـاطـ أمـينـ، ثـمـ كـيـفـ عـصـفـ الدـهـرـ بـذـلـكـ الشـمـلـ الـجـمـيعـ فـأـصـبـحـتـ مـرـاتـعـ اللـهـوـ وـمـسـاحـ أـذـيـالـ الصـباـ مـلـعـبـاـ منـ مـلـاـهـيـ الـرـبـيعـ كـمـ يـقـولـ عـنـتـرـةـ:

ولـقـدـ مـرـتـ بـدارـ عـبـلـةـ، بـعـدـماـ لـعـبـ الـرـبـيعـ بـرـبـعـهـاـ المـتوـسـمـ^٤

فتركتن كل قراره كالدرهم
يجري عليها الماء، لم يتصرم
غرداً، ك فعل الشارب المترنم
قدح المكب على الزناد الأجدنم

جادت عليه كل بكر، حرة،
سحّاً، وتسكاباً، بكل عشية
وخلال الذباب بها، فليس بيارح
هزجاً، يحك ذراعه بذراعه

أو أن يحكي حديثاً من أحاديث محبوبته في تعرض عرضاً لذكر الموضع الذي كانت فيه عند ذكر الحديث كما يقول ابن أبي ربيعة:

نـزـهـ °ـ الـمـكـانـ، وـغـيـرـةـ الـأـعـدـاءـ
مـيـثـاءـ، °ـ رـابـيـةـ، بـعـيـدـ سـمـاءـ
نـبـتـ بـأـبـطـحـ، طـيـبـ التـرـيـاءـ^٨
بـرـدـ عـلـىـ صـحـوـ، بـعـيـدـ ضـحـاءـ
دارـ بـهـ! لـتـقـارـبـ الـأـهـوـاءـ»

قالـتـ لـجـارـتـهاـ عـشـاءـ، إـذـ رـأـتـ
فـيـ روـضـةـ، يـمـنـهـاـ مـوـلـيـةـ،^٩
فـيـ ظـلـ دـانـيـةـ الغـصـونـ، وـرـيقـةـ،
وـكـانـ رـيـقـتـهاـ صـبـيرـ^{١٠} غـمـامـةـ
«لـيـتـ المـغـيـرـيـ العـيـشـةـ أـسـعـفتـ

على أننا قد نجد أيضاً في شعر هذين العصررين، شيئاً من الشعر الطبيعي الجميل الذي يمثل مظاهر الطبيعة ويصور البرق والرعد والسحب، ولكننا نقرؤه فلا نحس فيه روح الشاعر الملتحدة المُعْجِبة، ولا نسمع صوتاً من أصوات القلوب، وإنما هي صور متتابعة يعرضها الشاعر عرضاً أميناً، وقد لا تخلو في عرضها من أناقة وطرافة، كما يقول أمرؤ القيس:

طـبـقـ الـأـرـضـ، تـحرـّىـ، وـتـدـرـ^{١١}
وـتـوارـيـهـ، إـذـ ماـ تـعـتـكـرـ^{١٢}
ثـانـيـاـ بـرـشـنـهـ، مـاـ يـنـعـفـرـ^{١٣}
كـرـؤـوسـ قـطـعـتـ فـيـهاـ خـمـرـ^{١٤}
سـاقـطـ الـأـكـنـافـ وـاـهـ، مـنـهـمـ^{١٥}
فـيـهـ شـؤـبـوـبـ جـنـوـبـ، مـنـفـجـرـ^{١٦}
عـرـضـ (خـيـمـ) (فـخـفـافـ) فـيـسـرـ^{١٧}
لـاحـقـ الـأـيـطـلـ، مـحـبـوـكـ، مـُمـرـ^{١٨}

دـيـمـةـ هـطـلـاءـ، فـيـهاـ وـطـفـ
فـتـرـىـ الـوـدـ إـذـاـ ماـ أـشـجـنـتـ
وـتـرـىـ الـضـبـ خـفـيـفـاـ، مـاهـرـاـ
وـتـرـىـ الـشـجـراءـ، فـيـ رـيـقـهاـ
سـاعـةـ، ثـمـ اـنـتـحـاـهـاـ وـابـلـ،
راـحـ، تـمـرـيـهـ الصـباـ، ثـمـ اـنـتـحـىـ
ثـجـ، حـتـىـ ذـاقـ عـنـ آـذـيـهـ
قـدـ غـدـىـ يـحـمـلـنـيـ فـيـ أـنـفـهـ

أو كما يقول أوس بن حجر:

لمستكف، بعيد النوم، لواح^{١٨}
في عارض، كمضي الصبح، لمَّا حَ^{١٩}
يكاد يدفعه من قام بالراح^{٢٠}
ريط منشرا، أو ضوء مصباح^{٢١}
كأنه فاحص، أو لاعب، راح^{٢٢}
أقرب أبلق، ينفي الخيل، رماح^{٢٣}
شعثاً، لهاميم، قد همت بإرشاح^{٢٤}
تسيم أولادها في قرقر ضاح^{٢٥}
إعجاز مزن، يسح الماء، دلاح^{٢٦}
من بين مرتفق منها، ومن طاح^{٢٧}

إني أرقـتـ، ولم تأرقـ معـي صـاحـ!
يا من لـبرـقـ! أـبـيـتـ اللـلـيلـ أـرـقـبـهـ
دانـ، مـسـفـ فـوـيقـ الـأـرـضـ هـيـدـبـهـ
كـأـنـمـاـ بـيـنـ أـعـلاـهـ وـأـسـفـلـهـ
يـنـفـيـ الـحـصـاـعـنـ جـدـيدـ الـأـرـضـ مـبـرـكـاـ
كـأـنـ رـيـقـهـ - لـمـاـ عـلـاـ شـطـبـاـ -
كـانـ فـيـهـ عـشـارـاـ، جـلـةـ، شـرـفـاـ،
بـحـاـ حـنـاجـرـهـ، هـدـلـاـ مـشـافـرـهـ،
هـبـتـ جـنـوبـ بـأـوـلـاهـ، وـمـالـ بـهـ
فـأـصـبـحـ الـرـوـضـ وـالـقـيـعـانـ مـمـرـعـةـ

أو كما يقول ملحة الجرمي:

حبـيـاـ سـرـىـ مجـتـابـ أـرـضـ إـلـىـ أـرـضـ^{٢٨}
بـجـدـ الـأـرـضـ مـاـ لـمـ يـكـنـ يـقـضـيـ^{٢٩}
كـمـ حـنـ نـيـبـ بـعـضـهـنـ إـلـىـ بـعـضـ^{٣٠}
شـمـارـيـخـ مـنـ لـبـانـ فـيـ الطـوـلـ وـالـعـرـضـ^{٣١}
بـمـنـهـمـرـ الـأـرـوـاقـ، ذـيـ قـزـعـ رـفـضـ^{٣٢}
عـلـىـ أـثـرـهـ، إـنـ كـانـ لـلـمـاءـ مـنـ مـحـضـ^{٣٣}
مـنـ الـعـرـفـ النـجـديـ ذـوـبـادـ وـالـحـمـضـ^{٣٤}
كـنـهـضـ الـمـدـانـيـ قـيـدـهـ، الـمـوـعـثـ، الـنـقـضـ^{٣٥}

أـرـقـتـ، وـطـالـ اللـلـيلـ، لـلـبـارـقـ الـوـمـضـ
نـشـاوـيـ مـنـ إـلـدـاجـ كـدـرـىـ مـزـنـهـ يـقـضـيـ
تـحـنـ بـأـجـواـزـ الـفـضـاءـ قـطـرـاتـهـ،
كـأـنـ الشـمـارـيـخـ الـعـلـاـ مـنـ صـبـيرـهـ
يـبـارـيـ الـرـيـاحـ الـحـضـرـمـيـاتـ مـزـنـهـ
يـغـادـرـ مـحـضـ الـمـاءـ ذـوـ هوـ مـحـضـهـ
يـرـوـيـ الـعـرـوقـ الـهـامـدـاتـ مـنـ الـبـلـىـ
وـبـاتـ الـحـبـيـ الـجـونـ يـنـهـضـ مـقـدـمـاـ

فقد رأيتم كيف أن أدب هذين العصررين قد كان لا يعرض لوصف مناظر الطبيعة إلا إذا دعت إليها الضرورة دون أن يسهب في الوصف ويُشبع القول، وكيف أنه إنما تحدث عن ظواهر الطبيعة أسهب في القول وأطال البيان. ولكنه في كل ذلك لا يتحدث عن الطبيعة بشغف الشاعر وخشووع المتعبد، بل يتناولها تناول القاص الذي لا يحفل بجلال المشهد أو جماله، وإنما الذي يهمه هو أن يصفه كما رأه، دون أن يخلع عليه حلقة من شعوره أو عبقاً من عواطفه.

وإن لهذا علته المعقولة، فقد عاش العرب في وسط لا يعرف سحر الجمال الطبيعي كما قلت من قبل، فلم يتحدث أدبهم عن هذا الجمال، وكيف يتحدث عنه وهو لا يعرفه؟ ثم إنه لم يتحدث عن ظواهر الطبيعة بالهجة المعجب المأخذو؛ لأن الطبيعة لم تخلع على أرضهم من نظارة الحسن ما يحرك في قلوبهم أدقّ وشائج الحس ويفتح قلوبهم لتنوّق ألوان الجمال ... فظلت قلوبهم موصدة لا تعرف هاته اللذة ولا تفقه ذيّاك الشعور. زيادة عن أنهم لم يختلطوا بغيرهم من شعوب الأرض اختلاطًا كبيرًا من شأنه أن يلطف الطبع ويرفق المزاج.

وإذن فقد كان الأدب العربي في هذين العصررين خاليًا من الشعور بجمال الطبيعة والحديث عنه إلا أصواتاً ضئيلة خافتة تنطلق من حين لآخر كغمضة الحال الذي لا يفقه ما يقول. وكان العرب واقفين أمام مشاهد الكون، لا وقفة المتهيب الخاسع؛ لأن مثل هاته الوقفة مما كان الباعث عليه نشوة الحس وسكرة الخيال لا بد أن ينفجر يومًا عن خير ما تتفق عليه القرائح والعقول، بل إنها وقفة الآخرين الذي لا ينطق، والأعمى الذي لا يبصر أضواء النهار ...

وكذلك ظل الأدب العربي حتى أظل العصر العباسي حياة العرب، فكانت عادات وأخلاق وأمزجة وطبع، غير ما أُلفَ العرب من طباع وأمزجة وأخلاق. وكان أن اصطحبفت الحياة الإسلامية بصبغة قوية مشتركة من حضارات عديدة متباينة، تكونت منها حضارة جديدة مهللة ناعمة، تجمع كل ما عرف الفرس والروم والإسلام من فكر وطبع ودين، فكان لهذا كله أثر غير يسير على النزعة العربية الجافية. وكان أن أتقن اللغة العربية كثير من الفرس والروم، ونظموا فيها الشعر بأمزجة غير الأمزجة العربية وأذواق غريبة عن طبائع العرب، وكان أن سكن نبغاء شعراء العرب العواصم والمدن واستبدلوا بشحذف العيش وعُنجِيَّة البداوة غضارة الحضر ورقة المدنية المتوفّة، فعاشوا في أوساط جميلة لم تخلّ عليها السماء بما بخلت به على الوسط الطبيعي الذي نشأ فيه أدب العصر الأموي والجاهلي قبله.

وفي هذا الوسط المترف الذي تغَيَّر فيه كل شيء، شبَّ ذلك الفن الطبيعي الوليد، الذي يَتَعَنَّى بسحر الطبيعة في مختلف المظاهر وشتى الألوان، فأصبحنا نسمع من الأدب أصواتًا لم تألفها أسماعنا من قبل فيها رقة وعدوّة، وفيها طلاوة وحلوة. أصبحنا نسمع أبا تمام يقول:

تريا وجوه الأرض كيف تصور
زهر الربا، فكأنما هو مقمراً!
 جاء الربيع فإنما هي منظر
 نوراً، تكاد له القلوب تنور
 فكأنها عين إليك تحدّر^{٣٣}
 عذراء، تبدو تارة، وتختدر^{٣٧}
 فئتين في حُلَلِ الربيع تبخر
 عصب تيمن في الوغى وتمضر^{٣٨}
 دُرُرُ، تشقق قبل، ثم تزعر
 يدنو إليه من الهواء معصر^{٣٩}

يا صاحبِي! تقصيا نظركما
 تريا نهاراً مشمساً، قد شابه
 دنيا معاش للورى، حتى إذا
 أضحت تصوغ بطونها لظهورها
 من كل زاهرة ترقق بالندى
 تبدو، فيحجبها الجميم، كأنها
 حتى غدت وهداتها ونجادها
 مصفرة، محمرة فكأنها
 من فاقع، غض الشباب، كأنه
 أو ساطع في حمرة، فكأنما

ونجد البحترى يقول:

من الحُسْن، حتى كاد أن يتكلما^{٤٠}
 أوائل ورد، كُنَّ بالأمس نُؤْمَّا
 ينث حديثاً، كان قبل مُكَتَّما^{٤١}
 عليه، كما نشرت وَشِيًّا منمنما^{٤٢}
 وكان قَدَّى للعين، إذ كان محرماً

أتاك الربيع الطلق، يختال ضاحكاً
 وقد نبه النوروز، في غلس الدجى
 يفتقها برد الندى، فكأنه
 ومن شجر، رد الربيع لباسه
 أحلى، فأبدى للعيون بشاشة

ويقول:

وما حاك من نشر الرياض المنشر^{٤٣}
 تسلل شخص الخائف، المتذكر
 سبائب عصب، أو زرابي عَبْرَر^{٤٤}
 إليها — سقوط اللؤلؤ المتَّحدِر
 يشاب بِإفْرَنْدٍ، من الروض أحضر
 أعلىيه، من در نثير، وجواهر
 عليها صقال الأقحوان المنور^{٤٥}
(العلوة) في جاديها المتعصفر^{٤٦}

ألم تر تغليس الربيع المبَّغِ
 وسرعان ما ولى الشتاء، ولم يقف
 مررنا على (بطياس)، وهي كأنها
 كان سقوط الفطر فيها — إذا اثنى
 وفي أرجوانىٌّ، من النور، أحمر،
 إذا ما الندى وفاه صبحاً تماليت
 إذا قابلته الشمس رد ضياءها
 وإن عطفته الريح قلت التِفَاتَةُ

وأصبحنا ننصر في الأدب العربي مثل قول ابن الرومي:

كما اغزورقت عين الشجي، لتدمعا
ويلحظن الحاظاً من الشجو خُشعاً^{٤٧}
كأنهما خِلَّا صفاء تَوَدعا
من الشمس، فاخْضَرَ اخضراراً مشعشاً^{٤٨}
وغنِي مغني الطير فيه وسَجَعاً^{٤٩}
كما حثث النشوان صنجاً مشرعاً^{٥٠}
على شدوات الطير ضرباً مُوقعاً

وظلت عيون النور، تَخْضُلُ بالندى
براعينها صوراً إلينك، روانيا
وبين إغصاء الفراق عليهما
وقد ضربت في خضرة الروض صفرة
وأنكى نسيم الروض ريعان ظله
وغرد ربعي الذباب خلاله
فكانت أرانين الذباب هناكم

ومثل قوله:

على سُوقها، في كل حين تنَفَّسُ
حمام تغني في غصون تووسوس^{٥١}
فتسمو، وتحنو تارة فتنكس
أفادت بها أنس الحياة، فتأنس
كواكب، يذكو نورها حين تشمسم!

إذا شئت حيتني بساتين جنة
 وإن شئت ألهاني سماع بمثله
تلعبها أيدي الرياح إذا جرت
إذا ما أغارتها الصبا حركاتها
توماض فيها — كلما تلمع الضحى —

ولكن هذا الفن الوليد لم يكثر كثرة مطلقة في الأدب العباسي! ولم يتَفَّشْ فيه كما تَفَّشَ في الأدب الأندلسي، وما ذاك إلا لأن الوسط الطبيعي الذي نَمَتْ فيه حياة الأدب العباسي لم يَكُنْ من الجمال والروعة كما كانت بلاد الأندلس الجميلة.

فقد تفشي هذا الأدب الطبيعي الجميل في البلاد الأندلسية تَفَقُّشًا عظيمًا حتى كاد يسيطر على غيره من فنون الشعر، وحتى أصبحت الطبيعة هي الْحُلْمُ البهيج الذي يملأ قلوب الشعراء في سكرات الخيال، وهي الأغنية المُحَبَّبة التي يترنمون بها في أمسياتهم الجميلة الحالية وليلاتهم العذبة الفاتحة.

غير أن لي في الأدب الأندلسي وبالخصوص في الطبيعي منه رأياً جديداً ربما لا تتفقونني عليه ولكنني قائله لكم ولو لا ذلك لما أعلمتم به.

ينحصر هذا الرأي في أن الفن الطبيعي في الأدب العباسي أبعد نظرًا وأعمق خيالًا، وأدق شعورًا منه في الأدب الأندلسي. رغمًا عن أن الأدب الأندلسي أحفل بهذا الفن من

الخيال الشعري والطبيعة في رأي الأدب العربي

الأدب العباسي وغيره، ورغمًا عن أن الأدب الأندلسي أحفل بهذا الفن من الأدب العباسي وغيره، ورغمًا عن أن الأدب الأندلسي أنصع ديباجة وأرقى أسلوبًا وأدق تصويرًا، ورغمًا عن أن البلاد الأندلسية أشد جمالاً وأعظم روعة من البلاد الشرقية التي أنتبت ذلك الأدب العباسي الجميل؛ فإنني لأجد من صدق الشعور وقوة العاطفة عند البحتري وأبى تمام وابن الرومي ما لا أجد له عند ابن خفاجة وابن زيدون وغير هذين من شعراء الأندلس. ثم ما رأيكم أنتم؟ ألا تحسون بهذه النظرة البعيدة النافذة، وبهذا الخيال القوي العميق في بيت أبي تمام:

دنيا معاش للورى حتى إذا جاء الربيع فإنما هي «منظر»

أيُّ خيالٍ أعمق وأيُّ نظرٍ أبعد؟ أليس من بعد النظر وعمق الخيال أن يحس الشاعر بتلك (الدنيا) الخيالية الرائعة التي يخلقها الربيع ويكتشف عنها الوجود. تلك الدنيا البريئة الطاهرة التي لم تخلق لمشاغل العيش وأرجاسه وإنما خلقت للذة «النظر» وإمتاع النفوس الشاعرة؟

ثم ألا تشعرون بهذا الإحساس القوي الصادق في بيت البحتري:

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً من الحسن حتى «كاد أن يتكلما»!

هذا الإحساس العميق اليقظ الذي يكاد يستمع إلى صوت الربيع؟
ثم ألا تحسون بهذا الشعور المشتمل في بيت ابن الرومي:

إذا ما أغارتها الصبا حركاتها أفادت بها «أنس الحياة» فتأنس

هذا الشعور الصادق الذي يحس بروح الحياة السارية في عروق الكون؟ بل! إن في هذه الأبيات الثلاثة من عمق الخيال ودقة الإحساس بجمال الوجود ما لا يظفر بمثله في الأدب الأندلسي على ما في البلاد الأندلسية من نضارة وحسن لم ترزق مثهماً البلاد الشرقية، وقد صدمتني هاته الحقيقة لأول وهلة صدمة قوية كادت تزعزع إيماني بصحة تلك النظرية التي قالتها من قبل: نظرية (الوسط الطبيعي) ولكنني وجدت بعد ذلك العامل الحقيقي الذي أثرَ في الأدب الأندلسي هذا الأثر البعيد، وهذا العامل هو أن الأدب الأندلسي قد نشأ في عصر توفرَ فيه أسباب الحضارة توفرًا منكراً.

فانغمست النقوس في حمأة الشهوات انغماساً أمات بها العواطف الهائجة وأحمد نوازي الشعور. فأصبح تيار الحياة يتدقّق عن إيمان الناس وشمائلهم وهم لا يشعرون، وأصبحت الطبيعة في أنظارهم وسيلة جامدة من وسائل اللذة لا منبعاً خالداً من منابع الإلهام. وهكذا أخذت تلك الأنوثة المترفة توهج الشعر وضياء القرائح على أنها هذبت من الألسنة ورققت أساليب الخطاب فكان الشعر الأندلسي رقيقاً طلياً ولكن قليل الحظ من عمق الشعور.

ولنأخذ بعد هذا في الشعر الأندلسي لنعرف كيف كانت الطبيعة في نظره. يقول ابن خفاجة شاعر الطبيعة على ما يقول الكثير:

أشهى وروداً من لَمَى الحسناء
والزهر يكنفه مجر سماء
من فضة في بُردة خضراء
هدب يحف بمقلة زراء
متلويَا كالحية الرقطاء
ذهب الأصيل على لُجَيْنِ الماء

للـهـ نـهـرـ سـالـ فـيـ بـطـحـاءـ!
مُـتـعـطـلـفـ مـثـلـ السـوـارـ كـأـنـهـ
قد رـقـ حـتـيـ ظـلـ قـرـصـاـ مـفـرـغاـ
وـغـدـتـ تـحـفـ بـهـ الـغـصـونـ كـأـنـهـاـ
وـالـمـاءـ أـسـرـعـ جـرـيـهـ مـتـحدـراـ
وـالـرـيـحـ تـبـعـثـ بـالـغـصـونـ وـقـدـ جـرـىـ

ويقول:

ريح، تلف فروعها، معطار
سَحَّابٌ أَذِيَالٌ الصبا، سَحَّارٌ
والجزع زند، والخليج سوار^١
وتطلعت شنبابها الأنوار
وشدى الحمام، وصفق التيار
والتَّفَ في جنباتها النوار
من كل غصن صفحة وعدار

وصقيلة الأنوار تلوى عطفها
عاطى بها الصهباء أحوى أحور
والنور عقد، والغضون سوالف
بحديقة، ظل اللمى ظلاً بها
رقص القضيب بها، وقد شرب الثرى
غناء، أَلْحَافَ عطفها ورق الندى
فتطلعت في كل موقع لحظة

وعلى هذا النحو كل ما قاله ابن خفاجة في جمال الطبيعة: براعة في الوصف وجمال في الأسلوب. دون أن تجد خيالاً قوياً أو شعوراً دقيقاً. وإنْ أَعْجَبْ فلائفة تسمى ابن خفاجة شاعر الطبيعة. وغاية ما أرى فيه هو أن في نفسه ميلاً إلى الطبيعة شغلته اللذة

الخيال الشعري والطبيعة في رأي الأدب العربي

واللهو عن الإفصاح عنه وإن في قلبه شغفاً بالوجود كفكرة المجنون ... يدل لذلك إكثاره من الحديث عن جمال الطبيعة ومواقع الفتنة منها.
ويقول ابن زيدون:

وقد زهرت فيه الأزاهر كالزهر
لتغليف أفواه بطيبة الخمر

كان عشي القطر في شاطئ النهر
ترش بماء الورد رشا، وتنثني

ويقول:

والأفق طلق، ووجه الأرض قد راها
كأنما رق لي فاعتلى إشفاقا
كما حلت عن اللبات أطواقا
بثنى لها حين نام الدهر سراقا
جال الندى فيه، حتى مال أعنقا
بكث لما بي فجال الدمع رقراقا
فازداد منه الضحى في العين إشراقا
وَسُنَانَ، نَبَّهَ منه الصبح أحداقا^{٥٢}

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقا
وللنسيم اعتلال في أصائله
والروض عن مائه الفضي مبتسم
يوم، ك أيام لذات لنا انصرمت
نلهم بما يستميل العين من زهر
كأن أغينه – إذ غاينت أرقني –
وردد تالق في ضاحي منابته
سرى بنافجة نيلوفر عبق

وتقول إحدى شواعر الأندلس:

سقا ه مضايق الغيث العميم
حنو المرضعات على الفطيم
أذ من المدامة للنديم
فتلمس جانب الدر النظيم

وقانا لفحة الرمضاء واد
نزلنا دوحة، فَحَنَا علينا
وأرشفنا على ظماء زلاً،
تروع حصاه حالية العذاري

ويقول ابن سهل:

اغنم زمان الوصل، قبل الذهاب
فالروض قد وفاه دمع السحاب

وقد بدا في الروض سر عجائب

* * *

ورد ونسرين، وزهر الأقاح
كالممسك فاح
والطير شاد باختلاف النواح

* * *

لما رأيت الليل أبدى المشيب
والأجم الزهر هوت للمغيب
والورق تبدي كل لجن عجيب

* * *

ناديت صحيبي — حين لاح الصباح —
ق____ولًا ص____راح:
هي على اللذات والانشراح!

وعلى هذه السُّنة التي رأيتموها يسعى الأدب الأندلسي كله: ديباجة غضة ناعمة وتعابير عنية ناصعة ووصف دقيق جميل، ولكن ليس وراء ذلك عاطفة حادة أو إحساس عميق. والآن وقد تلوّت عليكم شيئاً من الشعر الطبيعي في عصوره المختلفة فأحسستم بهذا الفارق العظيم بين الدورين الأولين وبين الدورين الآخرين في نمط اللفظ وصياغة الكلام، وشعرتم بهذه الفروق الدقيقة التي بيّنها في تناول الأشياء والنظر إليها، ورأيتم شيئاً كثيراً من البساطة وعدم الاكتراث في الشعر الجاهلي والأموي حينما يحاول أن يصف مواضع الفتنة والملاحة من هذا الوجود، ثم عرفتم كيف أن الحضارة العباسية قد حُورت شيئاً غير يسير من الحياة الإسلامية، فكان لها التحوير ما نشاهد في الشعر العباسي من هذه الرقة وهذا الجمال اللذين لا نجدهما في الشعر الأموي والجاهلي مهما جهدنا في البحث. ورأيتم سعة في المجاز، وجمالاً في الاستعارة، وخلابة في التعبير، وعمقاً في الشعور في الشعر العباسى كلما حدث عن تلك الرياض الأئيقية والمناظر البهيجية، ثم إنكم أبصرتم هاته الرقة الحضارية المهللة وهاته العذوبة الساحرة التي تتفجر في شعر ابن خفاجة وأضرابه تفجر ينابيع الغياض وتلقى على الشعر الأندلسي حلقة ضافية من

الطرافة والجدة كلما تغنى بأودية الأندلس ورياضها حيث ترف ظلال الغصون الوارفة
وتتعرّد طيور الربيع.

الآن وقد سررت عليكم كل ذلك وعرفتم كل هذا، أريد أن أتلو على مسامعكم كلمتين
لشاعرين من شعراء الغرب: أولاهما للأمرتين وأخراهما لجيتي حتى تتبيّنوا الفرق بين
الرنّة العربية الساذجة البسيطة وبين الرنّة الغربية العميقه الداويره، وتعارفوا كيف ينظر
الأدب الغربي إلى الطبيعة بعد أن عرفتم نظره للأدب العربي إليها، وتحكموا بأنفسكم
على حظ نظره أدبنا العربي من الخيال الشعري العميق.

أجل، فأنا سأتألو عليكم هاتين الكلمتين ثم أسألكم بحق ما تقدّسون في هذا العالم:
هل تجدون بين شعراء العربية هذه الروح القوية المضطربة الشاعرة، هذه الروح التي
تنظر إلى الطبيعة كلها ككائن حي يتّنّم بوحي السماء فيثير في حنایا النفوس ما تثيره
أنّات القيثارة في يد الفنان الماهر من هواجع الفكر وسواجي الشعور، هذه الروح اليقظة
التي تحس بما في قلب الطبيعة من نبض خافق وحياة زاخرة تفيض على مظاهر الكون
هذا الجمال الإلهي الوصيء، فإذا الحياة بأسرها صورة من صور الحق، وإذا العالم كله
معبد لهذه الحياة. يقول لأمرتين: «إن الطبيعة أكبر قساوسة الله وأمهر مصوريه وأقدر
شعرائه وأبرع مغنيه، وإنك لتجد في عش العصفور تتناغي فيه أفراخه تحت رفرف
الهيكل الدارس، وفي أنفاس الرياح تهب من البحر حاملة إلى أديرة الجبل المقفرة خفوق
الشرع وأنين الأمواج وغناء الصيادين، وفي الزهور ينتشر أرجها في الفضاء وينتشر ورقها
على القبور، وفي صدى أقدام الزائرين تقع على مضاجع الموتى من هذا الدير، تجد في
كل هذا من التقوى والروعة والتأثير ما كان في هذا الدير منه وهو في إبان عهده وعنفوان
مجده!»

ويقول جيت: (أرى كل شيء حولي ينبع ويزهر، وحينما كنت أبصر هذه الجبال
المغطاة بأشجار الدوم من أسفلها إلى أعلىها، وتلك الأودية المظللة مجانيها بالغابات
الأنيقة وذلك النهر ينساب هادئاً بين نغمات القصب المهترة، وتتراءى في جوانبه تلك
السحب الجميلة المزجاة في جو السماء بنسيم المساء، وأسمع الأطياف تحبّي بأغاريدها
موات الغابة جموعاً، وخشارمة الذباب ترقص طربة مرحة على أشعة الشمس الأرجوانية
الغاربة، وأرمق الأرض ببصري فرأى الأشنان يمتص غذاءه من الصفا الصلدة، والرتم
ينبت فوق سفح الأكمة القاحل المرمل فيكشفان لي عن ذلك النبع المقدس وتلك الحياة
القوية في باطن الطبيعة، أقول حينما كنت أرى وأسمع هذه الأشياء أشعر لأن قلبي

يحيط بها ويعيها بما شئت من حرارة وقوه، و كنت أشعر أنني أقرب ما أكون إلى التأله
بما يفيض في قلبي من الشعور والحس، ويحيل إلى أن صور العالم الجميلة الفخمة
تحرّك في نفسي فتملؤها حياة جديدة.

... آه، كم تمنيت في ذلك الزمن أن أقطع أجواء الفضاء على جناحٍ ذلك الكركي
الذي يطير فوق رأسي فأبلغ ساحل ذلك البحر الأعظم الذي لما ينكشف سره للإنسان
لأشرب من اللانهاية كأساً دهاقاً تبسّط القلوب وتتنعش المشاعر!
وأشعر لحظة واحدة، على قصوري وضعي، ب نقطة تجري في دمي من سعادة ذلك
الموجود الذي يخلق كل شيء في ذاته وبذاته).

تلك الكلمة لامرتين وجيتى، ولست بمستخلفكم مرة أخرى أي النظرتين إلى الطبيعة
أعمق؟ وهل عندنا في العربية مثل هاته الروح القوية الشاعرة؟ ولكنني أقول كلمتي، وهي
أن النظرة العربية إلى الطبيعة بسيطة إزاء هذه مهما بلغت من العمق والشعور، وأن تلك
الكلمات الأخيرة التي قالها جيت هي الأغنية الخالدة التي ترددتها النفوس الشاعرة في
أعماقها كلما شاهدت بهجة الكون وجلال الوجود. أما شعراء العربية فلم يعبروا عن مثل
هاته الإحساسات الشعرية العميق لأنهم لم ينظروا إلى الطبيعة نظرة الحي الحاشع إلى
الحي الجليل وإنما كانوا ينظرون إليها نظرتهم إلى رداء منمق وطراز جميل لا تزيد عن
الإعجاب البسيط، ومثل هاته النظرة الفارغة لا ينتظر منها أن تشرق بالخيال الشعري
الجميل لأن الخيال الشعري منشأ الإحساس الملتهب والشعور العميق، وشعراء العربية
لم يشعروا بتيار الحياة المتدق في قلب الطبيعة إلا إحساساً بسيطاً ساذجاً حالياً من
يقظة الحس ونشوة الخيال، هو ذلك الإحساس الذي تشاهدون أثره في شعر البحترى
وابن الرومي وأبى تمام وبعض شعراء آخرين.

هوماش

- (١) الكوكب هنا بمعنى النبات الطويل، ومؤزر: ملتف.
- (٢) كامل الطول.
- (٣) الجثاج والعرعار هما نوعان من النباتات البرية المزهرة.
- (٤) المترعر.
- (٥) خلوه من الناس.
- (٦) ممطرة غب المطر.

- (٧) لينة التربة سهلتها غير رملية.

(٨) أي الأرض الندية وهي مؤنث الأثري.

(٩) سحاب فيه سواد وبياض.

(١٠) وطف: أصل معناه وفرة شعر الأهداب والجاجبين، واستعمله هنا لتدلّي السحابة إلى الأرض لأنها إذا تدلّت ودنت من الأرض كان فيها مثل الوطف الذي يكون بوجه البعير. طبق: عم. تحرى: تصيب الحرى وهو فناء البيوت.

(١١) الود: وتد الخيمة. أشجذت: كفت. تعترك: تشتّد.

(١٢) ينعفر: ما يمس التراب لكثره الماء.

(١٣) الشجراء: الأشجار. ريقها: أولها.

(١٤) الأكناف، الجوانب.

(١٥) راح: عاد وقت الرواح. تمرية: تستدره.

(١٦) ثج: صب. آذيه: موجه. خيم، وخفاف، ويسر: أسماء أماكن.

(١٧) أنفه: أوله. لاحق: ضامر. الأيطل: الخصر. محبوك: شديد الخلق. ممر: مفتول الأعضاء.

(١٨) لستكف: يريد منه البرق. لواح: كثير الإيماض.

(١٩) لماح: كثير اللمعان.

(٢٠) مسف: قريب من الأرض. هيدبه: سحابه المتلّي إلى الأرض.

(٢١) ريط: جمع ريطه وهي الملحفة وما شابهها.

(٢٢) فاحص: طائر يفحّص التراب عن الأرض ليتخذ فيها أفحوصاً.

(٢٣) شطب: اسم جبل. أقرباب: نوع من عدو الخيل. أبلق: فرس مخطط بسواد وبياض. ينفي الخيـل: يدفع الخيـل. رماح: كثير الرفس برجله.

(٢٤) عشار: جمع عشر، وهي الناقفة التي مضى على حملها عشرة أشهر. جلة: بكسر أولها بمعنى مسنة، يطلق على المفرد والجمع والمذكر والمؤنث. شُرف، باسم أوله وثانية: مسنة هرمة. شـعـثـ: مغبرةـ الشـعـرـ ملـبـدـتهـ. لهاـمـيـمـ: غـزـيرـ اللـبـنـ. الإـرـشـاحـ: هوـ أـنـ يكونـ للـنـاقـفـةـ فـصـيـلـ قـويـ عـلـىـ المـشـيـ.

(٢٥) هـدـلـاـ: مـسـتـرـخـيـةـ الـمـاشـافـ وـهـيـ شـفـاهـ الـبـعـيرـ. تـسيـمـ: تـرـعـيـ. الـقـرـقـ: الـأـرـضـ الـمـطـمـئـنـةـ الـلـيـنـةـ. ضـاحـ: ظـاهـرـ مـنـكـشـفـ.

(٢٦) دـلاـمـ: كـثـرـ المـاءـ.

- (٢٧) القيعان: جمع قاع وهو الأرض المطمئنة التي انفرجت عنها الجبال والهضاب.
ممرعة: مخصبة. مرتفق: ثابت. طاح: منبسط من الأرض ممتد.
- (٢٨) الحبى: السحاب الذي يعترض في الأفق.
- (٢٩) النشاوى: السكارى. الكدرى: السحاب الرقيق. المزن: السحب البيضاء، يصف
هذا السحاب بأن غيومه البيضاء الرقيقة باتت من سراها في الظلام تمشي مشية الشارب
الثمل.
- (٣٠) تحن: تتجاوب أصواتها بقفز الرعد. قطراته: نواحية. النيب: النياق
المسنة.
- (٣١) الشماريخ: أصل معناها قمم الجبال واستعملها هنا في أعلى السحاب
لضخامتها. الصبير: السحاب الذي فيه سواد وبياض.
- (٣٢) بباري: يسابق. الحضرميات: التي تهب من ناحية حضرموت. الأرواق: جمع
روق وهو الماء الصافي. القزع، قطع السحاب يسابق الرياح السريعة بمائه الصافي المتدقق
من غيمه المتفرقة الشبيهة بالنون التي تركت بمراعيها.
- (٣٣) محض: خلاصة.
- (٣٤) العرفج: نوع من النبات. النجدي: المنسوب إلى نجد. ذوباد: الذي بلي من
قدمه. الحمض: كل ما كان مرّاً من النبات.
- (٣٥) الجون: يطلق على الأبيض والأسود ومراده به هنا الأبيض. المداني: الذي ضيق
عليه عقاله تقصيره. الموعث: السائر في الأرض اللينة المرملة. النقض: المهزول الضعيف.
- (٣٦) تحدر: تسكب الدمع.
- (٣٧) الجميم: ما يغطي الأرض من الأعشاب.
- (٣٨) عصب: جمع عُصْبَة بضم فسكون وهو العصابة. وتيمن وتمضر: تتشبه
باليمانية والمصرية، وذلك أن العداوة بين اليمانية والمصرية قد كانت مستحكمة الحلقات
حتى اتخذ كل منها شعاراً، فكان شعار اليمانية الرياحيات الصفر والعمائم الصفر وكان
شعار المصرية الرياحيات الحمر والعمائم الحمر.
- (٣٩) معصفر: صابغ بالعصفر وهو صبغ أصفر.
- (٤٠) الطلاق: الضاحك أو الذي لا حر فيه ولا برد.
- (٤١) ينث: بيت وينشر.
- (٤٢) الوشي: الثوب المنقوش. المننم: المزخرف.

الخيال الشعري والطبيعة في رأي الأدب العربي

- (٤٣) النشر: أول ما ينبت من النبات.
- (٤٤) عبقر: مكان خرافي يزعم العرب أنه مسكن للجن ينسبون إليه ما يعجبون من جماله وإتقانه.
- (٤٥) الصقال: البريق الذي يكون في السيف ونحوه بعد جلائه.
- (٤٦) جاديهها: زعفرانها.
- (٤٧) صوراً: مائة.
- (٤٨) الريغان: أفضل شيء وأوله، ويريد منه هنا وارف الظل لأنه أفضل الظلال.
- (٤٩) ربعي: نسبة إلى الربيع. حثث: حرك. الصنج: آلة من الآلات الوتيرية. مشارعاً: مشدود الأوّلار.
- (٥٠) توسوس: تصوت صوتاً خفيّاً.
- (٥١) الجزع: منعطف الوادي.
- (٥٢) النافجة: وعاء السمك. النيلوفر: نوع من النبات.

الخيال الشعري والمرأة في رأي الأدب العربي

لقد علمنا، كيف كان الأدب العربي ينظر إلى الطبيعة في عصوره المختلفة، وعرفتم مبلغ تطور هاته النظرة على اختلاف العصور والبيئات، وأدركتم حظ تلك النظرة من الخيال الشعري في جميع الأعصر العربية، وسمعتم قبل ذلك شيئاً من الأساطير العربية وعرفتم ما هي عليه من الخيال الشعري بالنسبة لغيرها من أساطير الأمم الأخرى. كل هذا قد علمتموه ولست أتمنى إعادته ولكنني أريد أن أتناول الآن نوعاً آخر فيه ما في الطبيعة من سحر وفن، ومن قوة ودعة، لنظر كيف كان هو في رأي الأدب العربي، وهل نال نصيباً من الخيال الشعري لم تتأله الطبيعة ولا الأساطير أم كان حظه كحظ أخيه؟ وهذا النوع هو (المرأة)، هو هذا اللغز الجميل الذي يقتتنا بسحره ويختلنا بجماله، فنتبه مرغمين دون أن نستطيع له حلاً، هذا اللغز الجميل هو الذي سنستمع إليه في فم الأدب العربي وأناشيه.

يقول الفلاسفة الأقدمون: (إن النفس البشرية قد خلقت من عنصر الحسن وجبلت من فن الجمال ...) وفي هذا الكلام شيء من الحق غير قليل، وإنما تعللون هاته اللذة السامية التي تشعر بها النفوس جمِيعاً كلما شاهدت مرأى جميلاً من مرائي هذا الكون البهيج؟ وبماذا تفسرون هذا الشغف بالجمال الذي قد يصبح في بعض النفوس تعطشاً دائماً وحنيناً لا يرتوي، وقد يسمو في بعض النفوس الشاعرة إلى أفق أعلى، فإذا

هو غيبة كلية في هذا الكون البديع تستغرق المشاعر وتطغى على كل الميل ...

تلك هي النفس الإنسانية: فلذة خالدة من هذا الجمال العبرى الذي يتفجر من قلب الحياة تفجُّر العطر من الوردة الياكعنة، فيشمل كل ما في هذا الملوك من حيٍ وميت، وينسجم على قسمات هذا العالم ووجوه هذا الوجود ...

تلك هي النفس الإنسانية: فلذة خالدة، فصلتها يد القدر عن جمال الحياة؛ ولذلك فهي أبداً تحن إليه في أي مظهر كان وفي أي لون بذا، فإن فقدته ظلت تبحث عنه بين سمع الأرض وبصرها حتى تظفر به.

... أما العرب فقد حُرموا كما قلنا من قبل من هذا الجمال السماوي الذي يجد عنده القلب لذة الحس وسعادة الشعور، ولم يكن لديهم من مظاهر الجمال على اختلاف فنونه غير فن واحد هو: «المرأة»، ففي المرأة وحدها استطاعوا أن يجدوا ذلك الينبوع السحري المتفجر من قلب الحياة ... وفي المرأة وحدها ظفروا بتلك الكأس الروية التي تطفئ ظمأ القلب إلى الحسن وغلة النفس إلى الجمال، فَغَنَّوْا بمحاسن المرأة وَشَبَّوْا بمفاتنها ما شاء لهم الشعر والعاطفة.

وتلك جِيلَةُ الإنسان في العالم كله منذ القدم، فالمرأة هي النصف الجميل الذي يحمل في قلبه رحيم الحياة وسلسبيل المحبة، والمرأة هي الطيف السماوي الذي هبط الأرض ليُؤْجِجَ نيران الشباب ويُعلِّمَ البشرية طهارة النفس وجمال الحنان، تلك هي المرأة في رأي البشرية جماء إلا قلوبًا لم تعرف نعمة الحب ولا سمعت نشيد الجمال فظلت مغلقة موصدة كأفئدة الصخور ... ولكن العرب تجاوزوا في التغني بالمرأة كل حد حتى أصبحت هي اللحن الجميل الذي تستهل به القصائد، وهي الكلمة السحرية التي تنفتح لها كنوز الشعر وحتى أصبحت عندهم كالآلهة الشعر عند قدماء اليونان لا يبدأون الشعر إلا بنجواها، ولكن لا تتعجلوا فتحسّبوا أنهم أَجْلَوا المرأة ونظروا إليها نظرة سامية فيها طهر العبادة وفيها معنى التقديس والإجلال كما كان ينظر قدماء اليونان إلى آلهة الشعر حينما يناجونها في مستهل القصائد. كلا! فإن شيئاً من هذا لم يكن، لأن الشاعر العربي ما كان يُبُوئُ المرأة المنزلة السامية وذلك المقام الجميل إلا ليتحدث عن ملهاته الساحرة التي أَلْفَى عندها متعة الجسد ومنهل الشهوات ... أو لكي يفاخر رفاقه من أبناء الباردية بأنه قادر على تَصْبِي قلوب النساء والعبث بهن ليس غير ...!

أجل، فإن نظرة الأدب العربي إلى المرأة نظرة دنيئة سافلة منحطة إلى أقصى قرار من المادة، لا تفهم من المرأة إلا أنها جسد يُشتَهِي ومتعة من متع العيش الدنيء ...

أما تلك النظرة السامية التي يزدوج فيها الحب بالإجلال والشغف بالعبادة، أما تلك النظرة الروحية العميقية التي نجدها عند الشعراء الآريين فإنها منعدمة بتاتاً أو كالمعدمة في الأدب العربي كله لا أستثنى إلا الأدندر الأقل على الرغم من أن أكثره في المرأة. لم يعرف العرب ولا الشاعر العربي تلك النظرة الفنية التي تعد المرأة كقطعة فنية من فنون السماء يلتمس لديها من الوحي والإلهام ما تضن به ينابيع الوجود ... ولم

يحاول الشاعر العربي أن يحس بما وراء الجسد، من روح جميلة ساحرة، تحمل بين جنبيها سعادة الحب ومعنى الأمومة وهذا أقدس ما في هذا الوجود، ولا بذلك القلب النقي الذي يزخر بأسمى عواطف الحياة وأشعارها، وأجمل أحلام هذا العالم الكبير، ولا شعر بما بين هاته الطبيعة الكبرى وبين المرأة من اتصال وثيق، حتى كأنها قلبها الإنساني، الذي يحمل بسمة الفجر، ويأس الظلام، ذلك شأنٌ لم تُحلق فيه أجنحة الشاعر العربي ولا نالته، بل ولم يطمح إليه بصره الذي ألفَ مَغَاوِرَةً الأولى وكهوفه الضيقة ... بل إن الشاعر العربي لم يرفع بصره إلى ما هو أدنى من ذلك بكثير، فهو إذا حدث عن جمال المرأة لم يتحدث عنه كفُنْ مستقل متجرد عن هاته المظاهر المادية التي تتصل بالخصر والردف ونحوهما، وإنما تحدث عن هذا الجمال المتهلل (الذي يوزن بالرطل والقطنطار من الشحم واللحم) كأنما الجمال جسد يُجسّس ومادة تُمس، أما أن يتحدث عنه كما يقول تاغور: (أمسكت يديها وضممتها إلى صدري، حاولت أن أملأ بحسنها ذراعي، وأن أنتبه بقُبَّي ابتساماتها العذبة، وأن أترشف بعيوني وميض أجهانها، ولكن، أواه! أين هي؟ من يستطيع أن يسلب من السماء زرقتها؟ حاولت أن أقبض على الجمال ولكنه غادرني غير تارك بين يدي سوى الجسد، فانتشت خاسر النفس كليلها، كيف يقدر الجسم أن يلمس الزهرة التي لا يقدر على لمسها غير الروح؟) أما أن يتحدث عن جمال المرأة، بمثل هذا الحديث، فذلك ما لا يستطيعه الشاعر العربي بحال، وذلك ما لا يظفر به الباحث في الشعر العربي كله، لا أستثنى أحدًا غير ابن الرومي ومن لفَ لفه وهو نفر قليل، فإن ابن الرومي تحدث عن جمال المرأة كشيء مستقل عن الجسد مصدره النفس الخالدة، يقول:

كريـة الـطـرف مـبـدـئ وـمـعـيد —
إـذـا أـدـام إـلـيـهـا
أـهـيـ شـيـء لـا تـسـأـمـ الـعـيـنـ مـنـهـ
أـمـ لـهـاـ كـلـ سـاعـةـ تـجـدـيـدـ؟
بـلـ هـيـ الـعـيـشـ، لـا يـرـازـ الـمـتـىـ اـسـتـحـ
دـثـ يـبـدـيـ غـرـائـبـاـ وـيـفـيـدـ

فالشاعر العربي لا يتكلم عمّا وراء جسد المرأة من تلك المعاني العميقية السامية، ولكنه مُحِيدٌ كل الإجادة إن أراد أن يحدث عن قدها الأهيف المشوش وعن طرفها اللامع الوسنان وعن وجهها المتورّد المنضور وعّما إلى ذلك من تلك الأوصاف المادية الملاقة أمام كل رائح وغادٍ والتي يحس بها كل الناس إحساساً متوازياً لا تظهر معه مَرِيَّةً للشاعر على غيره في الالتفاف إليه إلا في رصانة التعبير، وجمال الدبياجة وخلابة الأسلوب ... ولكن ليت شعري! هل تلك هي وظيفة الشاعر وغايته من هذه الحياة؟ إذن يا خيبة الشعر ويا سخفاً

الحياة! أجل يا خيبة الشعر وإن كان كثيرون من الناس لهم عقول يفهمون بها ثم لا يزالون يحسبون أن رسالة الشاعر ألفاظ منمقة نضيدة، وعبارات مرصعة، وكلام مرصوص! هذه هي النظرة الشائعة في الأدب العربي كله، والتي يتساوى فيها جميع شعراء العربية على اختلاف عصورهم، وتبادر طبقاتهم، وتتفاوت أوساط them، سواء في ذلك عَفْهُم وفاجرهم، وأولهم وأخرهم، وقد يكون من الغريب أن بعضًا من هؤلاء الشعراء يؤمنون بالحب إيمانًا ساميًّا، ويضمرون عنه في نفوسهم أبراً المعاني وأنقاها ما داموا خالين إلى أنفسهم أو إلى من يحبون، حتى إذا ما أرادوا التحدث عن المرأة لم يتحدثوا إلا بما يتحدث به الفاسق الفاجر من تلك الأوصاف الجسدية السافلة، ولكن لو تعمق الباحث في فهم الروح العربية، لعلم أن ذلك ليس من الغرابة في شيء؛ لأن من طبيعة هذه الروح أن لا تحيط بغير الظاهر المحسوس، على ما سأبنيه في الفصل الخاص بالروح العربية. وإنما الذي يستدعي البحث، هو أن النظرة التي نظر بها الأدب العربي إلى المرأة، قد ضلت بسيطة، لم تكتحل بأضواء النجوم، ولم تعرف غير الأفق الأول العهيد، ولم تتأثر بما اعتور الحياة الإسلامية من جزر ومد، ومن نور وظلمة، ومن صخب وسكون. ورأيي في بقائها زيادة على الأسباب العامة التي ستأتي عليها في الكلام على الروح العربية هو أن الذي عمل على بقائها دون أدنى تطور أو تحور هو:

أولاً: هاته الفكرة الجائرة، التي كانت تستحوذ على أدمغة العالم العربي كله، من أن المرأة مثل الغدر واللؤم، وحساسة الطبع، وحظة النفس، وخبث الضمير، فإن الفكر الذي يعتقد مثل هذا في المرأة لا يمكنه بحال أن يبصر ما وراء جسدها، من حياة عذبة ساحرة وعالم شعري جميل ... وهل يبصر مثل هذا العالم المشرق المنير من يرى أنه منبع الإثم، ومستقر الرذيلة الخائنة؟ ويقول مع المتنبي:

ومن خبر الغوانى فالغوانى ضياء فى بواطنه ظلام

ثانياً: هو أن المرأة لم تزل في جميع الأعصر العربية، قسطًا من الحرية الحقة، تتمكن معه من إظهار ما لها من مواهب وملكات تجبر الرجل على أن يحترمها ويبدل فيها رأيه، فيططلع على ما خلف الجسد من لج زاخر وبحر عميق، تختلف عليه الأمساء والأصبح، والأضواء والظلمات. ولا تُغرِّنكم تلك الحرية الموهوبة التي تسمعون عنها فإنها ليست هي الحرية الحقة التي أتحدث عنها والتي كان يمكنها — لو وقعت —

أن تحول هذه النظرة القاسية إلى ما هو أعف وأجمل. ذلك لأن الحرية التي وقعت في تلك العصور هي ضرب من الحرية متهتك خليع، يعبث بالفضيلة ويسخر بكل شيء ... وما أجدره أن يسمى انحطاطاً أخلاقياً، من أن يسمى حرية، فيدين هاته الكلمة الإلهية الظاهرة. ثم لأن الذي تمنع بهاته الحرية، هو قسم من النساء، لا حظ له من كرامة المرأة، بكل ما فيها من عفة سامية وطهر جميل، هو قسم من الإمامات المتجنيات على الرجال، المتهاافتات على اللذة، المتهاكلات على الفجور، تهالكًا يأباه الدين والعقل، وينكره الحياة الإنساني العريق، هو هذا الضرب الذي يتحدث عنه أبو نواس، والخليل، ومن كان على شاكلتهما فسقاً ودعارة، وهو هذا الضرب الذي يجد عنده خلقاء الأندلس ومجانها ما يغريهم على تعاطي اللذة ومتابعة اللهو. ولا أحسب أن مثل هذا اللون من الحرية، وهذا الضرب من النساء، مما يدفع إلى إبدال تلك النظرة بما هو أرق وأعذب، وإنما هو يؤيدها بل ربما زادها قساوة وشدة، وإلا فما الذي جعل هذا الأدب الفاجر الخليع، يتفضّل تقشياً منكراً في الأدب العباسي وفي الأدب الأندلسي، لولا مثل هؤلاء النساء.

وإذن فننظر إلى الأدب العربي إلى المرأة كنظرها إلى الطبيعة أو أدنى، لا سمو فيه ولا خيال. وإنما هو مادي محض لا يكاد يرى فرقاً بين المرأة والرداء وكأس من الخمر، فالمرأة تُتّخذ لإشباع شهوات الجسد والرداء يقي الجسم هاجرة الصيف، ويدفع عنه عادية الشتاء، وكأس الخمر يتلهى بها في آناء الفراغ! بل ربما سمت نظرة بعض الشعراء إلى الخمر، حين لم تسمُ نظرته إلى المرأة، ولا تحسّبوني مغالياً أو مغرقاً، فإن الشعر العربي بين أيدينا شاهد على ما أقول، هاكم امرأ القيس فهو يقول:

ويَا رُبَّ يَوْمِ قَدْ (لَهُوت) وَلِيلَةٍ بِآنَسَةٍ كَأَنَّهَا خَطٌّ تَمَثَّل

ويقول:

كَأَنِّي لَمْ أَرْكِبْ جَوَادًا لِلذَّةِ
وَلَمْ أَسْبِ الرِّزْقَ الرَّوْيِ، وَلَمْ أَقْلِ
وَلَمْ أَبْطِنْ كَاعِبًا ذَاتَ خَلْخَالٍ
لَخْلِيَّ (كَرِيَ كَرَةً!) بَعْدَ إِجْفَالٍ

ويقول:

وببيضة خدر، لا يرام خباؤها (تمتعت)، من (لهو) بها غير معجل

فماذا رأيتم عنده؟ هل زاد على أن جعل المرأة (متعة ولهواً)، وسُوَّى بينها وبين الفرس السابق والخمر العتيق؟
وها كم ما يقوله طرفة بن العبد شاعر الشباب المرح:

ولولا ثلاث، هن من عيشة الفتى

وجدك، لم أحفل متى قام عودي^١

فمنهن: سبق العاذلات بشربة،

كميت، متى ما تعل بالماء تزيد^٢

وكرى — إذا نادى المضاف مجنباً —

كسيد الغضا، نبهته، المتورد^٣

وتقصير يوم الدجن — والدجن معجب —

ببهكنة، تحت الخباء الممددة^٤

فهل أسمعكم خيراً مما أسمعكم امرؤ القيس؟ وهل وجدتم عند هاته النفس الفتية
الملتذة المتحفظة غير ما لقيتم عند تلك النفس الخليعة الماجنة الفاجرة؟ بل ها كم ما
يقول أوس ابن حجر:

وهل (لهوت) بمثل الرئم، آنسة تُصْبِي الحليم، عروب، غير مكلاح^٥

وهماكم ما يقول عبد الله بن عجلان النهدي قتيل الصبابة:

شبابي، وكأس باكرتني شمولها^٦

سقيمة بردي، نمتها غيولها^٧

وحقة مسك، من نساء، لبستها

جديدة سربال الشباب، كأنها

الخيال الشعري والمرأة في رأي الأدب العربي

فما رأيت؟ هل ألفيت عن هذين ما هو أجمل مما لقيتم عند طرفة وامرئ القيس قبله؟ بل تأملوا ممّا ي قوله أبو نواس في شباب المجد الإسلامي، وعنوان الحضارة العباسية؟ ثم نبئوني ماذارأيت؟ إنه يهتف قائلاً:

الله بالبيض الملاح
وبقيّنات، وراح
لا يصدنك لاح
هو عن سكرك صاح

وهكذا ينطلق يقول كلما حدثه شيطانه عن المرأة.
ثم استمعوا لأبي تمام كيف يقول:

ذوب الغمام: فمنهلٌ ومنسكبٌ^٨
وقد ينفُّس عن جد الفتى اللعب^٩
... من كل ممكورة، ذاب النعيم لها
كانت لنا (ملعباً)، (تلهو) (بزخرفة)

ثم استمعوا لما يقوله البحتري من بعده:

على الشباب، فتصبّني وأصيّها^{١٠}
علقت بالراح، أسلقاها وأسقيها
شربت من يدها خمراً، ومن فيها
قد أطرق الغادة، الهيفاء، مقتدرًا^{١١}
في ليلة، ما ينال الصبح آخرها
عاطيتها غصة الأطراف، مرهفة

وإلى هنا أقف خوف الإطالة، وأسائلكم: هل رأيت من فرق بين ما قاله امرؤ القيس وما قاله البحتري، وبين ما قاله أولئك وما قاله هؤلاء رغمًا عن تغيير الزمن وتبعاد شقة العصور، غير هاته الرقة اللغوية وهاته النعومة في التعبير اللتين لا تعهدهما البداوة الخشنة الجافية.

وإذا رأيت في أي منزلة ينزل المرأة العربية، وبأي تعبير يعبرون عنها، فهملوا نستمع إليهم كيف يصفونها في أشعارهم وإلى أي ناحية منها يعرضون.
هذا امرؤ القيس يصف محبوته البدوية فيقول:

ترايّتها مصقوله كالسجنجل^{١٢}
بناظرة من وحش (وجرة) مُطْفَلٌ
مهفهفة، بيضاء، غير مفاضة
تصد، وتبدى عن أسيل، وتنقى

إذا هي نصته، ولا بمعطل^{١٣}
أثيث، كقنو النخلة المتعثكل^{١٤}
تضل العقصاص في مثنى ومرسل
وساق كأنبوب السقي المذلل^{١٥}
نؤوم الضحى، لم تنتطق عن تفضل^{١٦}
إذا ما اسبكَّرت بين درع ومجلول^{١٧}

وجيد، كجيد الرّيم، ليس بفاحش
وفرع، يغشى المتن، أسوه، فاحم
غدائره مستشرزات إلى العلا
وكشح لطيف، كالجديل مخصر
وتضحي، فتيت المسك تحت فراشها
إلى مثلها، يرنو الحليم صباية

وهذا الأعشى يتغنى بعشيقته فيقول:

تمشي الهوينا، كما يمشي الوجي الوجل^{١٨}
مر السحابة: لا ريث، ولا عجل
إذا تقوم إلى جاراتها – الكسل
كأن أخصها بالشوق منتعل^{١٩}
والزنبق الورد في أرданها شمل
حضراء، جاد عليها مسبل هطل
مؤزر بعميم النبت، مكتهل^{٢١}
ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل

غراء، فرعاة، مصقول عوارضها
كأن مشيتها، في بيت جارتها
يكاد يصرعها – لولا تشدها
هركولة، فنق، درم مرافقةها
إذا تقوم، يضوع المسك أصورة^{٢٠}
ما روضة، من رياض الحزن، معشبة
يضاحك الشمس منها كوكب شرق
يوماً بأطيب منها نشر رائحة

ويقول طرفة:

مظاهر سلطاني لؤلؤ، وزبرجد^{٢٢}
تناول أطراف البرير، وترتدى^{٢٣}
تخلل حر الرمل، دعص له ندي^{٢٤}
أسف ولم تقدم عليه بأثمد^{٢٥}
عليه، نقى اللون، لم يتخد

وفي الحي أحوى، ينفض المرد، شادن
خذول، تراعي ربّا بخميصة
وتتبسم عن ألمى، كان منوراً
سقته إية الشمس إلا لثاته
ووجه، كأن الشمس ألقت رداءها

ويقول كعب بن زهير:

إلا أغن غضيض الطرف مكحول
لا يشتكي قصر منها ولا طول
كانه منهل بالراح معلول^{٢٦}
صاف بأبطح، أضحى وهو مشملول^{٢٧}
من صوب غاردية بيض يعاليل^{٢٨}

وما سعاد غداة البين — إذ رحلوا —
هيفاء مقبلة، عجزاء مدبرة
تجلو عوارض ذي ظلم — إذا ابسمت —
شجت بذني شبم، من ماء محنية
تنفي الرياح القذى عنه وأفرطه

وعلى مثل هاته السنة يذهب النابغة، وعنترة، ولبيد، وعمرو بن كلثوم، وأوس بن حجر، والمرقش، وزهير، وغير هؤلاء من شعراء الجاهلية، لا يختلفون إلا في كيفية التعبير عن هاته المعاني — وربما اتفقوا فيها — أو في قلة الأوصاف وكثرتها. ولو شئت أن أستعرض كل ما قاله شعراء الجاهلية والإسلام في هذا الصدد وأنقصاهم واحداً واحداً، أو عقريّاً عقريّاً، لاضطررت إلى تأليف مجلد ضخم أتعرف فيه أقوالهم وأبين مبلغ ما فيها من التفاوت وأثار العصور. وإن كنت على ثقة من أنهم في هذا الفن سواء، أو ما هو منه بسيط. ولكنني لم أرُدْ هذا وإنما أردت أن آخذ من شعر كل عصر شيئاً لنوابغ شعرائه، حتى يتضح هذا الرأي الذي أسلفت الحديث عنه.

وإذن فلنستمع إلى ابن أبي ربيعة ومن معه لنتظر هل من فارق بينهم وبين من قبلهم من شعراء الجاهلية. يقول ابن أبي ربيعة:

كما يضيء ظلام الحندس القمر^{٢٩}
ملء العناق، ألوف، جيبيها عطر^{٣٠}
فمشبع نشب منها، ومنكسر
تكاد من ثقل الأرداد تنبر^{٣١}
عذب المقبيل، مصقول، له أشر^{٣٢}
ثلج بصفباء مما عتقت، (جدر)

خوب، تضيء ظلام البيت صورتها
مجُولة الخلق، لم توضع مناكبها
ممکورة الساق، مقصوم خلخلها
هيفاء، لفاء، مصقول عوارضها
تفتر عن واضح الأنبياب متتسق
كالمسك شيب بذوب النحل، يخلطه

لعلكم تقولون: إنه فاسق ولا يأخذ الفاسق من المرأة إلا مثل هاته الموضع التي هي أقرب إلى حسه وأدنى إلى طوية نفسه. فماذا تصنعن بالجنون وهو ذلك العاشق البريء الذي لم تأخذ عليه ريبة قط إذ يقول عن ليلاه:

بمكحولة العينين في طرفها فتر^{٢٣}
بعين مهأة الرمل قد مسها الذعر
أقاح، بجرعاء (المراصين) أو دُرُّ
لأثر منها في ترائبها الذر
إلى الأقرب الأدنى — تقسمها الbeer^٤

ومن أين للشمس المنيرة بالضحي
وأنّى لها من دل ليلي، إذا انشت
تبسم ليلي عن ثنايا، كأنها
منعمه، لو باشر الذر جلدتها
إذا أقبلت تمشي — تقارب خطوها

أفلا ترون أنه لم يخالف ابن أبي ربيعة في كبيرة ولا صغيرة مع اختلاف بين الاثنين في المزع والهوية وفي الطبع والحياة؟ لعلكم تقولون: إنه مشكوك في وجوده، وقد جزم الدكتور طه حسين بأنه شخصية خيالية. وما يدرك لعل قائل هاته القطعة شاعر قريب الشبه بابن أبي ربيعة في المشرب والروح. إذاً فماذا تصنعن بجميل وهو شاعر لم يُشكَّ أحد في وجوده ولا أقدم بشر على عَدَّه من أبطال الأساطير، وهو من تعرفون: عفة نفس وطهارة ذيل وحباً مكيناً، وحسب ذلك دليلاً ما ذكره صاحب الأغاني في الجزء الثامن من أنه زار بثينة في خدرها فبلغ النبأ أباهَا وأخاها فتقلاً سلاحهما واعتزما قتلها حتى إذا وصلا الخدر واستمعا لما يدور بين العاشقين من حديث طاهر وقول بريء ولّياً من حيث أتيا دون أن يسفكا ذلك الدم الطاهر أو يزهقا تلك الروح النبيلة، ما رأيك في شاعر هذا حظه من طهارة النفس وشعره يقول عن بثينة:

قناه من المران، ما فوق حقوقها
وما تحته منها نقى يتقصّف^{٢٥}
وكشح، كطّي السابرية، أهيف^{٢٦}
لها مقلتا ريم، وجيد جدایة

ويقول أيضًا:

در تحدّر نظمه، منشور
ريما الروايف، خلفها ممكور^{٢٧}
دل ولا كوقارها توقيير
غراء، مبسام، كأن حديثها
مخوططة الساقين، مضمورة الحشا
لا حسنها حسن، ولا كدلالها

بل مانا يكون قولكم لو انتقلنا إلى العصر العباسي فإذا هو كالعصر الأموي والجاهلي دون أي تفاوت أو اختلاف؟ انظروا ما يقول أبو نواس:

سريلها الدل ثوب بهجته
للدعص من ردها تراكمه
فالسحر والفنج في محاجرها

ثم انظروا ما يقوله أيو تمام من بعده:

إن في خيمهم لمفعمة الحج
وهي لا عقد ودها ساعة البيـ
وكان الجريال شيب بماء الـ
وهي كالظبية النوار، ولكن

وَمَا يَقُولُهُ أَيْضًا:

بيضاء، يصرعها الصبا من نعمة وحشية، ترمي القلوب إذا اغدت خود، كخط البانة الأملؤد^{٤٢} وَسُنَّى، فما تصطاد غير الصيد

ببيضاء، يصرعها الصبا من نعمة
وحشية، ترمي القلوب إذا اغتدت

ثم اسمعوا ما يقوله المتنبي:

كل خمسة، أرق من الخم
ذات فرع، لأنما ضرب العن
حالك كالغدف، جلل، دجو
تحمل المسك من غدائيرها الـ

كل خمسة، أرق من الخم
ذات فرع، كأنما ضرب العد
حالك كالغداف، جتل، دجو
تحمل المسك من غدائرك الـ

ثم اسمعوا ما يقوله البحترى:

أجفانها من مدام الراح ساقيها
ولقضيب نصيبي من تثنيةها
ببيضاء، أوقد خديها الصبا، وسقا
في حمرة الورد شكل من تلّهُها

ويقول مهيار الديلمي:

من دم أحشاي ما تشرب
لجين الجمال بها مذهب
بأرعن مرقاہ مستصعب^٦
(بدارين) ينخل ما يجلب^٧
سحوراً، بلی، فمها أطيب
سقى بالحمى الأعين النابلات
وحيما الحيا أوجها لا تغش
وما نطفة حضنها السماء
ولا مسكة طاف عَطَّارها
بأطيب من فم ذات الوشاح

فهلرأيتم أيها السادة من تطور بين العصر العباسي والعصررين قبله من حيث نظر
الشعر إلى المرأة ومتزالتها منه رغمًا عن الاختلاف الشديد بين المدنية والفكر والعوائد في
هاته العصور الثلاثة؟ أليست المرأة التي يتحدث عنها امرؤ القيس وطرفة وعمر بن أبي
ربيعة هي نفس المرأة التي يتحدث عنها الحكمي والبحتري وأبو تمام؟ وأليس الحديث
هو عين الحديث إلا رقة في المعنى وطلاؤة في اللفظ وتنويقاً في العبارة خلا منها الأدب
الأموي والجاهلي قبله وقضت بها المدنية العباسية من بعد.

وإذن فلنأخذ العصر الأندلسي للننظر كيف كان مقام المرأة في الشعر، وكيف كان
حظ الحديث عنها من السمو والخيال، ولننتقل من تلك البيئة الشرقية إلى هاته البيئة
الغربية لنعرف هل أثَرَتْ عظمة الطبيعة واختلاف التربية والوسط والمناخ على النظرة
الشعرية إلى المرأة، هذا ابن خفاجة يقول:

في فرع أسلحة، تميد شبابا^٨
وتوردت أطراوها عنابا^٩
وطفا به الدر النفيس حبابا
فتق الشباب بوجنتيها وردة
وضحت سوالف جيدها سوسانة
بيضاء، فاض الحسن ماء فوقها

ويقول:

مراضاً، وجِيداً أتلعاً، ونفاراً
ولفت على ظهر الكثيب إزارا
هي الظبي، طرفاً أحوراً، وملاحظاً
أفاحت على عطف القضيب ملاءة

وهذا ابن خاتمة يقول:

وريق ما بثغرك ألم رحيق?
ويكنفها شفاه ألم شقيق؟
جفونك؟ ألم هي الخمر العتيق؟
وقلبي سكرة ما ألم يفيق
وكاسي مقلتي، فمتى أفيق

دماء فوق خدك ألم خلوق؟
وما ابتسمت ثغور ألم أقااح
وتلك سنّة قوم ما تعاطت
لقد أعدت معاطفك انثناء
جمالك خمرتي، وهواك راحي

وهذا ابن سهيل يقول:

أقحوان، عصرت منه رحيق
وهو من سكرته ما إن يفيق
ساحر الغنج، شهي اللعس
وهو من أغراضه في «عبس»

ما رأينا قط ثغراً. نضده
أخذت عيناه منه العربدة
فاحم اللمة، معسول اللمى
وجهه يتلو (الضحى) مبتسمًا

... والآن ما رأيكم بعد كل هذا؟ هل وجدتم بين من تلوت عليكم أشعارهم – وهم نوابغ الشعر وأبطاله – واحداً يعبد في محبوبته ذلك الجمال الروحي المجسد، لا تلك المرأة التي تضم وتتشم ثم تتتصوح وتتدوى بين الأحضان الفانية كما يقول لأمرتين؟ أم هل وجدتم من يحاول أن يتكلم بقلبه أو بعقله عما وراء جسد المرأة من شعور سماوي رقيق، وعاطفة ندية ساجية وأحلام عذبة مستحبة تتلاقى سناء وبهجة وتشمل العالم كله بالعاطف والحنان، فينَّخذ من خياله أجنة نارية ترفرف في ذلك العالم الشعري الذي تترافق من حوله أشعة الطفل وضباب الصباح؟ ... هل سمعتم بين هؤلاء وغيرهم من يتغنى بحنون المرأة وحبها كما يتغنى الطائر الغرد؟ هل سمعتم من يتحدث عن المرأة وهي معبد الحب في هذا الوجود كما يتحدث الخاشع المتعبد عن بيت من بيوت الله؟ هل سمعتم بين هؤلاء وغيرهم من يتحدث عن قلب (المرأة) بمثل هذا الحديث الجميل الذي تسمعونه من جبران في أجنته المتكسرة ... (إن قلب المرأة لا يتغير مع الزمن، ولا يتحول مع الفصول، قلب المرأة ينافع طويلاً ولكن لا يموت، قلب المرأة يشابه البرية التي يتخذها الإنسان ساحة لحروبه ومذابحه، فهو يقتلع أشجارها ويحرق أعشابها ويلطخ صخورها بالدماء ويفرس تربتها بالعظام والجامجم، ولكنها تبقى هادئة ساكنة مطمئنة، ويظل فيها الربيع ربيعاً، والخريف خريفاً إلى آخر الدهور ...)؟

كلا! فأنت لم تسمعوا مثل هذا الحديث ولن تسمعوا ممن سلف من شعرائنا لأن مثل هذا الحديث لا يقدم عليه إلا من أöttى شعوراً جميلاً مشرقاً وخيالاً قوياً متربداً لا يتهيب الأعمق المظلمة ولا يقنع بالظواهر البدائية. أما الشاعر العربي فلم يُؤتَ مثل هذا الإحساس ولا هذا الخيال على ما سُبّبَيْنَهُ في الفصل الخاص بالروح العربية، وإنما كان له إحساس قاصر وخیال محدود لا يتجاوز الظواهر ولا يطمع فيما وراء المرئيات. وإنما الذي يدعوه لأن يفكر في قلب المرأة وهو مطمئن إلى أنه منبع الغدر والخيانة. وما الذي يدفعه إلى تفهم روحها وله من جسدها مرتد مخصب لشعره ونشيده...؟

وبعد كل هذا فما الذي أخذناه؟ أخذنا أن المرأة في الأدب العربي لم تظفر بنصيب من الخيال الشعري ولو كان يسيراً لأن النظرة التي نظر إليها بها كانت مادية محضة لا عمق فيها ولا ضياء، سواء في ذلك جميع العصور والأجيال. وغاية ما يمكن أن يؤخذ من الفرق أن الشاعر في العصرين الجاهلي والأموي قد كان صادقاً في ميله إلى المرأة وشغفه وإن لم يتحدث عنها إلا من الوجهة الجسدية، وأما الشاعر العباسي والأندلسي فقد قضت المدنية الفاجرة على منبع الرجلة فيه فأصبح أكثر حديثه عن المرأة كاذباً لا تحس فيه حرارة الحب ولا صدق الهوى بالرغم أن أنه جميل الرنة، خلاب النسق، وإن كان السمع لا يعد من حين لآخر صرخة ثائرة من صرخات الحب تتجاوب في ذلك السكوت الشامل العميق.

ولهذا التحالف علته المعقولة فإن المدنية ما تَفَشَّى إلا وتنَشَّى معها الفسق والفحور وتتوافرت أسباب اللهو والمجون فخدمت تلك الشعلة الكامنة في نفس الرجل. وما الذي يؤوجها وفي كل حين تتلقاه بنيات الهوى ولدات الدلال، أما البداوة فهي في مأمن من هذا الخطير الذي يقضى على جذوة الرجلة في الرجال، ولذلك فهي باقية يثيرها الحب ويؤوجها الغرام.

هوامش

- (١) عُود: جمع عائد وهو الذي يزور المريض في مرضه.
- (٢) كميت: فيها سواد وحمرة.
- (٣) مجنبًا: منحنياً من الهزال. المتورد، الوارد.
- (٤) البهكنة: الشابة الغضة الشباب.
- (٥) الرئم: الغزال الأبيض. عروب: تبهج زوجها. مكلاح: مكشة عابسة.

- (٦) شمولها: خمرتها.
- (٧) سقية: قصبة من البردي وهو نوع من النبات كالقصب. نمتها: أنمتها. غivilها: الأودية التي فيها المياه.
- (٨) ممكورة: مملوقة الساق.
- (٩) بزخرفة: بزینته. ينفس: يروح ويخفف.
- (١٠) أطرق الغادة: أزورها ليلاً.
- (١١) مفاضة: مسترخية البطن. السجنجل: المرأة.
- (١٢) مطفل: يتبعه طفله. يقول إن لها نظرة عذبة ساحرة كنظرة المهاة إلى خشفها الصغير.
- (١٣) نصته: رفعته.
- (١٤) القنو: هو للنخل بمثابة العنقود للعنبر.
- (١٥) الكشح: الخصر. الجديل: زمام الناقة. السقي: البردي وهو نبات شبيه بالقصب. المذلل: المحروث.
- (١٦) التفضل: شد وسطها بفاضل ثوبها للشغل كنایة عن أنها متربة لا تعمل.
- (١٧) اسبكرت: استقامت ماشية. المجول: درع صغير.
- (١٨) غراء: بيضاء حسنة. فرعاء: طولية الشعر. العوارض: الأسنان التي بعد الثنایا. الوجي: رقيق القدم من المشي بلا نعل.
- (١٩) هركولة: جميلة الجسم والتكتوين والمشية. فنق: منعمة. درم: ممتئلة. أخمصها: باطن القدم.
- (٢٠) أصورة: جمع صوار وهو وعاء المسك. يقول إنها حين تنہض يتضوّع المسك منها كما يتضوّع من وعائه. الورد: الأحمر. شمل: شامل.
- (٢١) كوكب: ما طال من النبات. شرق: يانع. زاهر: مؤزر: ملتف بما أحاط به من نبات كما يلتف بالإزار. مكتهل: تام الطول مزهر الفن.
- (٢٢) الأحوى: الأسمر. المرد: ثمر الأراك. الشادن: ولد الظبية إذا ما بدأ يشتد. المظاهر: الذي يجعل واحداً فوق آخر.
- (٢٣) الخذول: الظبي المتخلّف عن القطيع. الربّب: قطيع الظباء. البير: ما قارب النضوج من ثمر الأراك. ترتي: تدخل بين أغصانه حتى تصبح لها كالرداء.
- (٢٤) الأللى، الثغر في شفتيه سمرة. المنور: يريد منه الأقوحوان. حر الرمل: نقية. الدعنص: الكثيب الصغير من الرمل.

- (٢٥) إية الشمس: شعاعها وهذا المعنى مبني على خرافة كان العرب يؤمنون بها، أتينا عليها في «الخيال الشعر والأساطير». اللثاث: مواضع الأسنان. أسف: ذر عليه الأئمدة الكحل.
- (٢٦) العوارض: ما يلي الثناء من الأسنان. الظلم: البريق. المعلول: المزوج.
- (٢٧) شجت: هزجت. المحنية: منعطف الوادي. أبطح: مسيل المياه فيه رمل وحصى دقيق. المشمول: البارد.
- (٢٨) أفرطه: ملأ حتى فاض. الغادية: السحابة. اليعاليّل: فوق الواقع الماء ونفاحاته.
- (٢٩) الخود: الصبية.
- (٣٠) مجولة الخلق: مفتولة غير مسترخية ولا متهدلة.
- (٣١) اللفاء: ضخمة الفخذين. تنبتر: تنقطع.
- (٣٢) أشر: بضم ففتح، تحزيز في الأسنان.
- (٣٣) فتر: فتور.
- (٣٤) البهر: انقطاع النفس من الإعياء والكلال.
- (٣٥) المران: شجر تتخذ منه الرماح اللدننة الناعمة. حقوها: خصرها.
- (٣٦) جدایة: غزاله. السابرية: نوع من الثياب.
- (٣٧) مخطوطة.
- (٣٨) الشكل: الدلال.
- (٣٩) الحجلان: الخلاخلان. خوط: غصن. وريق: مورق.
- (٤٠) الجريال: الخمر.
- (٤١) التوار: النافرة.
- (٤٢) الأملود: الناعم اللين.
- (٤٣) الخمسانة: الهيفاء.
- (٤٤) ضرب: خلط.
- (٤٥) جثل: وافر مسود. دجوجي: حالك كالليل. جعد: ذو تجاعيد وثثان.
- (٤٦) الأرعن: يزيد الجبل وإن كنت لم أتعثر على تسمية الجبل بهذا اللفظ وإنما أعرف أنه يسمى الرعن.
- (٤٧) ينخل: يختار.
- (٤٨) أسلحة: واحدة أسلح و هو نوع من الشجر يستاك به كالأراك.
- (٤٩) سوالف: جمع سالف وهي مقدم العنق تحت الأذن.

الخيال الشعري والقصة في الأدب العربي

قد لا يعجز الباحث في الآداب العربية أن يجد شيئاً من القصص الرائع الفخم الجميل وأن يجد في ذلك القصص خيالاً عذباً مشرقاً بالروح والحياة، هذا لا سبيل لإنكاره فيما أظن، وهل ينكر هذا وفي العربية مثل ابن أبي ربيعة شاعر الشبيبة الغزلة والجمال المدل، ذلك الشاعر الذي قصر شعره على الحب والجمال فكان جميلاً كالحب حبيباً كالجمال، وكان أكثره قصصياً رائعاً فيه من الفن والعذوبة ما لا تستطيع وأنت تقرؤه إلا أن تعجب به وتسيرغها مثل امرئ القيس ذلك الشاعر الشقي بشعره المضحك الفروح، التعيس بنفسه الغريبة الشاعرة، ذلك الشاعر التعيس الذي استهتر بالحب فكان له لذة سائفة في فجر شبابه وغصة مرة في مساء الحياة!

وفيها غير هذين من لم يتوفروا على القصص توفرهما ولكنهم ضربوا فيه بسهم غير يسير.

كل هذا أؤمن به وأقرُّه ولا أريد أن أعرض له بنقص أو تحوير، ولكن الذي أريده بعد هو أننا لو بحثنا في ما أبقاه لنا العرب من تراث أدبي جليل فهل نعثر فيه على شيء من القصص الحق الذي يجدر أن يُسمى قصصاً؟

هل نجد هذا القصص الجميل الذي يراد لنفسه كفنًّا مستقلًّا من فنون الأدب التي تتخذ للتعبير عمّا في الحياة من حق وفن، هذا النوع الذي لا يُراد منه اللذة والإمتاع فحسب بل يراد منه إلى ذلك فهم الحياة الإنسانية بما اشتغلت عليه من خير وشر ومن حسن وقبح ومن لذة وألم.

هل نجد هذا القصص الذي يقصد منه سبر جراح النفس البشرية الدامية، ورسم تلك الدماء الدفقة التي تندفع آناً بعنف وقوة وحياناً على رود وأناة؟

نجد هذا النوع القوي الذي يعمد إلى قلب ابن آدم، إلى يم الحياة! ليصور للبشرية ما فيه من الآمال المجنحة بأجنحة النجوم خفاقة مترنمة، وليريها طفل السماء الجميل ... الذي يدعونه (الحب) واقفًا على ضفة اليم ينفح ناهي مستفزاً بنيات الأعماق الحالمة ... وليعطيها صورة شيقية من تلك العواطف العتية الجامحة التي ترغى وتزبد وتصطفق، وتدوي بكل ما في الحياة من قوة وما في الحياة من صوت ثم تطفي فتأكل كل شيء وتقضى على كل كائن ... فإذا الكل خراب في خراب، وإذا الكل قبضة من ضباب، وإذا اليم وحده يعج عجيج العاصفة ويدوي دوي الرعد، ثم يقر ويسكن فإذا نطفة بائسة ترتجح في راحة الموت!

وأخيرًا، هل نجد في الأدب العربي شيئاً من هذا القصص الذي يتصل بالخيال الشعري أدق اتصال لأنه يفهم الحياة بما اشتغلت عليه؟

غير أنني أرى أن الخير أن أرجئ الإجابة عن هذا السؤال إلى ما بعد الإجابة عن سؤالين آخرين، أولهما: هل القصص العربي مستقل بنفسه عن غيره من فنون الأدب؟ ثانيهما: هل كان القصص العربي من ذلك النوع الذي ينقد ويمحص، ويسبّر ويحلل؟ أما السؤال الأول فالجواب عنه هو أن القصص إما أن تبحث عنه في النثر وإما أن تبحث عنه في الشعر، فإن بحثنا عنه في الشعر، فالجواب أنه لم يستقل بنفسه استقلالاً يؤهله لمنزلة القصص الحقيقية أو ما يقاربه إلا في شعر ابن أبي ربعة، ففي شعر هذا الشاعر وحده قارب القصص أن يستكمل قواه ولو أتاح الله للشعر بعد ابن أبي ربعة من سار على قدمه وطبع على غراره لكننا نرى في الأدب العربي شعراً قصصياً جميلاً جديراً بهذا الاسم.

فإن الباحث في الأدب العربي ليستطيع أن يجد لغير ابن أبي ربعة من شعراء العربية شيئاً من القصص الجميل ولكنه غير مستقل بنفسه، فقد يجد للمنخل اليشكري هذا القصص الصغير الجميل الذي يصف موقفاً من مواقف الحب:

ولقد دخلت على الفتاة الكاءب الحسناء تر	ة الخدر في اليوم المطير فل في الدمقس وفي الحرير
فدفعتها، فتدافعت	مشي القطة إلى الغدير
ولثمتها فَتَنَفَّسَتْ	كتنفس الظبي الغرير
ودنت فقالت: (يا منخـ	ـل! ما بجسمك من حرور؟)

ما شف جسمي غير حب ك فاهدئي عنى وسيري

ولكنه لم يكن مستقلًا بنفسه ولا مسوقةً بذاته لأنه من قصيدة للشاعر أراد أن يفخر فيه فتنقل في معانيه تنقل الطائر المدل. وقد يجد مثل هذا عند امرئ القيس في معلقته حين يقول:

تمتعت من لهو بها، غير معجل
عليّ حراساً، لو يسرون مقتلي
تعرض أثناء الوشاح المفضل
لدى الستر إلا لبسه المتفضل
(وما إن أرى عنك الغواية تنجلّي)
— على أثرينا — ذيل مرط مرجل^١
بنا بطن حقف، ذي قفاف عقنقل^٢
عليّ هضيم الكشح، ريا المخلل^٣

وببيضة خدر، لا يرام خباءها
تجاوزت حراساً، وأهواه عشر
إذا ما الثريا في السماء تعرضت
فجئت: وقد نضت لنوم ثيابها
قالت: (يمين الله! ما لك حيلة
خرجت بها، تمشي، تجر وراءنا
فلما أجزنا ساحة الحي، وانتهى
هصرت بفودي رأسها، فتمايلت

ولكنه كالأول لا يزيد عن أنه بعض قصيدة تصرف فيها قائلها تصرفًا كبيرًا. وقد يجد مثل هذا في (أيامه) وفي (أحـار ابن عمرو!) وفي (الـأـمـمـ صـبـاحـاـ) ويجد مثله عند النابغة في قصيده (يا دار مية) وفي معلقته، بل ويجد مثل هذا عند أكثر شعراء العربية ولكنـه لا يـجـدـهـ مـسـتـقـلـاـ بـنـفـسـهـ يـسـتـغـرـقـ القـصـيـدةـ كلـهاـ لاـ يـدـعـ فـيـهاـ مجـالـاـ لـغـيرـهـ إلاـ عـنـ ابنـ أبيـ رـبـيعـةـ.ـ وإنـنيـ لاـ أـكـتـفـيـ بـقـصـيـدةـ وـاحـدـةـ مـنـ شـعـرـهـ القـصـصـيـ الـكـثـيرـ تـبـيـنـ لـكـمـ طـرـيقـتـهـ الشـعـرـيـ فـيـ سـرـدـ الـقـصـصـ.ـ تـلـكـ الـطـرـيقـةـ السـاحـرـةـ الـمـغـرـيـةـ الـتـيـ استـهـوتـ عـذـارـىـ مـكـةـ وـشـبـانـهاـ حـتـىـ حـرـمـ الـكـبـراءـ روـاـيـةـ شـعـرـهـ عـلـىـ فـتـيـانـهـ،ـ وـالـتـيـ استـهـوتـ نـفـسـ جـمـيلـ فـقـالـ:ـ هـيـهـاتـ يـاـ أـبـاـ الخـطـابـ لـأـقـولـ وـالـلـهـ مـثـلـ هـذـاـ سـجـيـسـ الـلـيـاليـ.ـ وـالـلـهـ مـاـ خـاطـبـ النـسـاءـ مـخـاطـبـتـكـ أـحـدـ.ـ عـلـىـ مـاـ ذـكـرـهـ صـاحـبـ الـأـغـانـيـ،ـ أـمـاـ هـاتـهـ القـصـيـدةـ فـهـيـ هـذـهـ:

وـقـلـيلـ لـوـ عـرـجـواـ أـنـ تـزـارـاـ
وـإـمـاـ يـعـجـلـونـ اـبـتـكـارـاـ
رـحـيلـ،ـ وـخـفـتـ أـنـ أـسـتـطـارـاـ

راـحـ صـحـبـيـ،ـ وـلـمـ أـحـيـ النـوارـاـ
ثـمـ إـمـاـ يـسـيـرـونـ فـيـ آـخـرـ الـلـيـلـ
وـلـقـدـ قـلـتـ حـضـرـةـ الـبـيـنـ،ـ إـذـ جـدـ

كأن لي عند مثلها نظارا
ي من الحزن تهملان ابتداراً^٤
رأيَّات العيون أن تستناراً
م ربِّي أن لا أطيق اصطباراً^٥
من حديث تقضي به الأوطاراً
د يجس الحديث والأخباراً^٦
ح خفيقاً معاوداً بيطارا
ح إذا الليل سدل الأستارا^٧
ت دجا المظلم البهيم، فحارا^٨
أرتجي عندها لديني يسارا^٩
وطء، أخشى العيون والنظرارا
ت، وكفت دمعاً من العين مارا^{١٠}
فيك عنا تجلداً وازورارا^{١١}
نَا أموراً، كنا بها أغمارا^{١٢}
قالة الناس – بيننا أستارا^{١٣}
قول من كان بالبنان أشارا^{١٤}
وأراها إذا دنوت قصارا
إذ رأته منها أريد اعتذارا
وارتني كفأ، تزيين السوارا
حركته ريح عليه فحارا^{١٥}
كجني النحل شاب صرفاً عقارا
فِي، معنى، بها مشوق، شعارا
وألقت عنها لدبي الخمارا^{١٦}
في يدي درعها تحل الإزارا
بح، منير، للناظرين، أنا را:
أتقى كاشحاً إذا قال جارا^{١٧}

فأنتم ترون في هذه القصيدة نوعاً طريفاً من القصص لا عهد للأدب العربي بمثله قبل ابن أبي ربيعة، لا عند امرئ القيس ولا عند النابغة ولا عند الأعشى ولا عند غير

هؤلاء من تقدمه من الشعراء، فابن أبي ربيعة جدير أن يسمى أبو الشعر القصصي لأنه هو البارز الأول لبذرة هذا الفن، ولو تعهدنا من بعده من الشعراء لأنشأ نشأ حسناً تعم فروعه جميع نواحي الحياة بعد أن كان قاصراً على أحاديث الحب ونجوى القلب، ولكن هذا القصص الشعري قد استهل بحياته وانقضى بمותו ولم يبعث على يد شاعر بعده من جديد.

وتلك حياة القصص في الشعر العربي وهي كما ترون حياة موجزة قصيرة كأعمار الورود ... وأما في النثر العربي فقد ظفر القصص إلى حدٍ ما بما لم يظفر به في الشعر من الاستقلال والحياة، وذلك أن هذا الفن لم يعرفه النثر الجاهلي أصلاً لندرة النثر في الجahلية وأنه كان قاصراً على الخطب والمحادثات ولم يدون منه إلا الشيء اليسير، ولم يعرفه النثر العربي بعد ذلك إلا في أواخر العصر الأموي عندما ترجمت قصص «ألف ليلة وليلة» فقد ألفت إذ ذاك بعض قصص أخرى تمثل شيئاً من الحياة العربية في تلك العهود وأضيفت إليها، ولكن كتاب «ألف ليلة وليلة» لم يبعث شيئاً من الحياة القصصية في النثر العربي البليغ، فظل على حالته الأولى إلى أن كان فجر القرن العباسي وإن ذاك ترجم ابن المفعع عن الفارسية بعض كتب قصصية تضرب إلى الحكمة والمثل لا نعرف منها إلا كتاب «كليلة ودمنة» فكانت هاته الكتب فتحاً جديداً في النثر العربي بعثت فيه روحاً قصصية لم تكن فيه من قبل. ونشطت أقلام بعض الكتاب إلى العمل في هذا السبيل فألف ابن فارس أستاذ بديع الزمان مقامات لم يحدثنا التاريخ بشيء منها، ثم ألف من بعده بديع الزمان مقاماته ثم ألف الحريري مقاماته المعروفة، ومن لدن الحريري انحط هذا الفن احطاطاً كبيراً وأصبحت المقاومة إنما هي لفاظ مرصوفة وكلمات مرصوفة يتباها بتضييقها والمخالفة بين ألوانها كما يتباها الصبيان برصف الحجارة اللامعة ... وفي تلك الفترة التي كانت بين البديع والحريري ألف المعربي رسالة الغفران وهي من خير ما ألف في النثر القصصي خيالاً ومغزى، ففي رسالة الغفران يجد الباحث في النثر القصصي ما لا يجده في غيرها من الصور الشعرية الرائعة والجمال الفني البديع، ولا أحد من النثر القصصي تلك الكتب التي من طراز «ألف ليلة وليلة» لأن مثل هاته الكتب لا حظ لها من الأدب العربي البليغ الذي لا أتحدث عن غيره.

وأما السؤال الثاني وهو: هل كان القصص العربي من ذلك النوع الذي ينقد ويمحض ويُسرّ ويحلل؟ فالجواب عنه أن القصص العربي لم يكن من هذا النوع وإنما

كان أحد أنواع ثلاثة: إما قصص يقصد به اللذة والإمتاع وهو ما نجده في شعر ابن أبي ربيعة وأمثاله من تلك الأحاديث الغرامية الغزلة، وإما قصص يراد منه الحكم وضرب المثل وهو هذا القصص الذي يمثله كتاب «كليلة ودمنة» وما سار على نهجه، وإما قصص يقصد للنكتة الأدبية والنادرية اللغوية وهو فن المقامات الذي يحمل لواءه البديع وأستاذه، والحريري ومن حذا حذوه.

وبعد فهل كان للقصص العربي نصيب من الخيال الشعري الذي نبحث عنه؟ أقول: لا، لأن الخيال الشعري لا يضطر إليه إلا من أراد خوض ظلمات الحياة وأنفاقها، واستطلاع ما في خفايا النقوس من صور ورسوم؛ لأن الخيال الشعري هو فانوس الحياة السحري الذي لا تسلك مسالكها بدونه، والقصص العربي لم يجشم نفسه ركوب هذه السبيل الغامضة المترعرجة، بل اتبع تلك الطريق المنبسطة الواضحة التي لا تؤدي إلى اللُّجَّةِ ولا الهاوية ولكنها تؤدي إلى صحراء مدحورة يأخذ الطرف ما فيها لأول نظرة ... تلك الطريق اللاحبة العارية التي سارت عليها أساطير العرب وأدابهم.

هوامش

- (١) مربط: كساء من حرير. مرجل: مرسوم به صور الرجال.
- (٢) الحقف: الرمل المستطيل المشرف. القفاف: المنعقدات من الرمل. عقنة: بعضه فوق بعض.
- (٣) هصرت: جذبت. بفودي: بجنبِي الرأس. هضيم: لطيف.
- (٤) اربعون: اعطف والنون للتوكيد.
- (٥) الورد: محل الورود. وذهب العشاق إلى موارد الماء لتبعد النسوان أو بعث سفرائهم إليهن لتلقي الأخبار، وضرب المواعيد عادة عربية لم تزل حتى الآن متبعه في الbadia.
- (٦) كمئنا: گَمَنًا واسترتنا. حار: رجع.
- (٧) مار: سال وجري.
- (٨) لاه: بكسر الهاء، الله در. أغمار: جمع غمر وهو من لم يجرب الأمور.
- (٩) حار: رجع إليه.
- (١٠) البهر: ضيق النفس من الامتلاء أو الإعياء.

فَكْرَةُ عَامَةٍ عَنِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ

قد انتهى بي البحث في الأدب العربي وتتبع روحه في أهم نواحيه إلى فكرة شائعة فيه شيوع النور في الفضاء لا يشذ عنها قسم من أقسامه ولا ناحية من نواحيه، وهاته الفكرة هي أنه أدب مادي لا سمو فيه ولا إلهام ولا تَشَوُّف إلى المستقبل ولا نظر إلى صميم الأشياء ولباب الحقائق، وأنه كلمة ساذجة، لا تعبر عن معنى عميق بعيد القرار ولا تفصح عن فكر يتصل بأقصى ناحية من نواحي النقوس، وفراشة جميلة ترفرف بين الزهور الحالمه ولا تجسر على الدنو من سراديب الجبال وأعمق الكهوف والأودية ... حتى إن الباحث فيه ليجهد نفسه في التنقيب عن ذلك الفن الذي يقرأه وهو خاشع، ويسمعه وهو مصيخ بكل ما في روحه من شوق، وبكل ما في قلبه من شفف، كأنه يستمع إلى الوحي من لسان القدرة الأزلية، ذلك الفن السماوي الذي يشعر حين قراءته باتساع أفق الحياة في نفسه وبانفساح رقعة الإحساس في قلبه، حتى ليكاد يسمع هدير العواطف بين جنبيه وخرير الحياة في عروق الكون، فيعييه البحث ويطلحه السعي ثم لا يجني من وراء ذلك غير الألم المرهق واليأس العقيم.

على أنني حين أقول هذا الذي قد يراه بعض الناس خطيئة لا تغفر، لا أنكر أن الأدب العربي قد أجاد أيمًا إجاده فيما تخصص فيه من وصف المظاهر البدائية وما بينها من تخالف أو تالُف أو تشابه أو تناُف، بل ربما فاق كثيراً عن الآداب الأخرى في هذا الصدد. ولا أقول إن الأدب العربي جامد ميت لم يمثل منازع تلك الشعوب التي عاش بينها تمثيلاً صحيحاً ولا قدم لها غذاءها الروحي الذي تتطلبه أهواها ومشاعرها؛ لأن الأدب العربي كان في جميع العصور التي تحدثنا عنها أدباً حيّاً صحيحاً فيياضًا بكل ما تصبو إليه آمال تلك الشعوب من صور الحياة ومثلها المختلفة، ولولا أنها وجدت فيه المشرب العذب الذي تستمرئه طباعها وتسيقه لما اعترفت به وأقبلت عليه ذلك الإقبال؛ فقد كان

الأدب الجاهلي بدوياً محضًا تسمع فيه رنة الصوت البدوي الأجش الذي لا يعرف رقة الخلط ولا نعومة المدنية الكاذبة، وتلمح في أحطافه روح البداوة المتوفثة الجائشة، بكل ما فيها من عزة وادعاء، وشدة الطبع البدوي العتيد الذي لا يعرف خفضاً ولا هواة، وكان الأدب الأموي على قسمين يمثلان الحياة الأموية تمثيلاً واضحًا جلياً: قسم يصور هذه الحياة العابثة المخلدة إلى البطالة واللهو، وقسم يمثل هذه الحياة الجادة العابسة التي تتلقفها الأهواء السياسية والدعوات الحزبية المتباعدة، وكان الأدب العباسي لاهياً ماجنا خليغاً في عنوان المجد العباسي وشرح الحضارة الإسلامية، ثم حائرًا متشككًا مضطربًا تعصف به الرياح النكب والظلمة الداجية في أواخر القرن الثالث وما بعده؛ لأن الحياة الإسلامية كانت حياة رعب وشك، وكان الأدب الأندلسي مستهترًا مسرفاً في اللذة والمحون لأن الأمة الأندلسية كانت صبية لاعبة تمرح بين الرياض والجداول.

فأنا إذن عندما أقول ذلك عن الأدب العربي لا أزعم أنه لا يلائم أدذاق تلك العصور ولا أرواحها، ولكنني أقول إنه لم يعد ملائماً لروحنا الحاضرة ولزاجنا الحالي ولأماليانا ورغائبنا في هذه الحياة، فقد أصبحنا نرى رأياً في الأدب لا يماثله ونفهم فهماً في الحياة لا نجده عنده ونطمئن بأبصارنا إلى آفاق أخرى لم تحدث بها أحلامه ولا يقطاته. لقد أصبحنا نتطلب أدباً جديداً نصيراً يجيئ بما في أعماقنا من حياة وأمل وشعور، نقرأه فنتمثل فيه خفات قلوبنا وخطرات أرواحنا وهجسات أمانينا وأحلامنا، وهذا ما لا نجده في الأدب العربي القديم. لقد أصبحنا نتطلب أدباً قوياً عميقاً يوافق مشاربنا ويناسب أدذاقنا في حياتنا الحاضرة بما فيها من شوق وأمل ... وهذا ما لا نجده في الأدب العربي ولا نظفر به؛ لأنه لم يخلق لنا نحن أبناء هذه القرون وإنما خلق لقلوب أخريستها سكينة الموت، أما نحن فما زلنا بعدُ من أبناء الحياة؛ ولهذا فلا ينبغي لنا أن ننظر إلى الأدب العربي كمثل أعلى للأدب الذي ينبغي أن يكون، ليس لنا إلا احتذاؤه ومحاكاته في أسلوبه وروحه ومعناه، بل يجب أن نعدّ كأدّب من الآداب القديمة التي نعجب بها ونحترمها ليس غير. أما أن يسمو هذا الإعجاب إلى التقديس والعبادة والتقليل فهذا ما لا نسمح به لأنفسنا، لكل عصر حياته التي يحياها، وكل حياة أدبها الذي تنفس فيه من روتها القشيب.

يجب علينا أن لا ننظر إلى الأدب العربي إلا تلك النظرة المعجبة لا غير حتى يمكننا أن نتّخذ لنا أدباً قوياً فيه ما في الحياة الحاضرة من عمق في الفكر وسعة في الخيال ودقة في الشعور، أما أن نتّخذ الأدب العربي الذي عرفناه خلولاً من مثل هاته الأمور مثلنا

الأعلى الذي ننسج على منواله، فذلك هو الخمول وذلك هو الموت الزؤام. لقد أصبحنا نتطلب حياة قوية مشرقة ملؤها العزم والشباب، ومن يتطلب الحياة فليعبد غده الذي في قلب الحياة ... أما من يعبد أمسه وينسى غده فهو من أبناء الموت وأنصاء القبور الساخرة ... لقد أصبحنا نتطلب الحياة ... ولكن لنعلم قبل ذلك أننا جياع عراة، وأن تلك الثروة الطائلة الضخمة التي أباقها لنا العرب لا تشبع جوعنا ولا تسد خلتنا. لعلنا إن شعرنا بفقرنا وعراينا تحركت فيينا عوامل العزة الإنسانية فطفقنا نعمل بعزم وقوه ما نستر به سواعدنا العارية ونطعم به أرواحنا الجائعة مما نحوكه بأنفسنا ونستخرجه بأيدينا من مصانع الحياة ...

فلا خير في أمة عارية تكتم فقرها ... ولا خير في شعب جائع يُظهر الشبع ... وشرّ من كل ذلك أمة تقتني أثوابها من معاور الموت ثم تخرج في نور النهار متوجحة بما تلبس من أكفان الموتى وأكسيه القبور ... !

ذلكرأي في الأدب العربي، أقوله بكل صراحة وجلاء دون أن أغ McM به أو أحجم، ولا يغض من الأدب العربي شيئاً أنه مادي لا شيء فيه من عمق الخيال وقوه التصور؛ لأن هذا منشؤه الروح العربية التي أملأـتـ هذا الأدب وألقت عليه هذا اللون الخاص، وإنما الذي يغضـنـاـ معـشـرـ التـونـسـيـنـ هوـ أنـ نـتـخـذـ منـ هـذـاـ الأـدـبـ الـذـيـ لمـ يـخـلـقـ لـنـاـ وـلـمـ نـخـلـقـ لـهـ غـذـاءـ لـأـرـواـحـنـاـ وـرـحـيـقاـ لـقـلـوبـنـاـ لـاـ نـتـرـشـفـ غـيرـهـ.

ذلكرأي في الأدب العربي وفي موقفنا تجاهه، أقوله لأنـهـ الحقـ وإنـ كـنـتـ أـعـلمـ أنهـ سـيـغـضـبـ طـائـفـةـ كـبـيرـةـ مـنـ يـؤـثـرـونـ الـحـيـاةـ فيـ أـكـنـافـ الـدـهـورـ الـغـابـرـةـ، حيثـ السـكـينـةـ التيـ لاـ تـصـمـ الآـذـانـ وـالـسـبـابـاتـ الـذـيـ لاـ يـسـتـفـزـ الـحـيـاةـ، وـلـكـنـتـ فـيـ غـنـيـةـ عنـ سـخـطـ هـاـتـهـ الطـائـفـةـ منـ النـاسـ وـعـنـ رـضـاـهـ؛ لأنـهاـ تـقـدـسـ كـلـ مـاضـ وـتـعـبـدـ كـلـ قـدـيمـ لـأـنـ فـيـ هـقـاـ وـنـوـرـاـ وـلـكـنـ لـأـنـ رـدـاءـ الـقـدـمـ يـكـسـبـ مـهـابـةـ الـماـضـيـ وـجـلـالـ الـتـارـيـخـ. أـنـاـ فـيـ غـنـيـةـ عنـ مـثـلـ هـذـهـ الطـائـفـةـ منـ النـاسـ، وـحـسـبـيـ أـنـيـ أـعـلـنـتـ حـقـيـقـةـ أـرـضـيـتـ بـهـاـ نـفـسـيـ وـأـرـضـيـتـ بـهـاـ الـحـقـ وـذـوـيـهـ، وـلـكـنـ لـكـيـ لـاـ يـبـقـيـ رـيبـ فـيـ قـلـوبـ هـاـتـهـ الطـائـفـةـ الـتـيـ سـتـنـكـ عـلـيـ هـذـاـ الرـأـيـ أـقـولـ: نـبـئـونـيـ يـاـ سـادـتـيـ! هـلـ تـجـدـونـ فـيـ الـعـرـبـيـةـ مـنـ يـحـدـثـكـ عـنـ تـلـكـ الـمـعـانـيـ الـعـمـيقـةـ الـتـيـ هـيـ أـعـقـمـ مـنـ الـمـوـتـ وـأـشـدـ سـعـةـ مـنـ الـحـيـاةـ، تـلـكـ الـمـعـانـيـ الـقـوـيـةـ الـنـافـرـةـ الـتـيـ تـلـوـذـ بـأـوـدـيـةـ الـفـكـ وـشـعـابـ الـخـيـالـ؟ـ كـلـاـ!ـ وـلـكـنـكـ وـاجـدـونـ مـنـ يـسـتـطـعـ أـنـ يـحـدـثـكـ بـكـلـ أـسـلـوبـ وـصـوـتـ عـنـ تـلـكـ الـمـعـانـيـ السـازـجـةـ وـالـأـفـكـارـ الدـاجـنـةـ الـتـيـ أـلـمـ بـهـاـ الـعـربـ فـيـ بـداـوـتـهـمـ الـأـوـلـىـ وـأـدـرـكـوهـاـ قـبـلـ أـنـ تـلـمـسـ أـفـئـتـهـمـ جـذـوةـ الـحـقـ وـتـذـهـبـ بـأـوـهـاـمـهـ تـيـارـاتـ الـحـيـاةـ.

نبئوني يا سادتي، هل تجدون في العربية من يستطيع أن يتحدثكم عن هاته العواطف الغنيفة التي تهز أسس الحياة هزاً، هاته العواطف المتناففة التي تنطلق فيما باسمة مستبشرة وادعة، أو مذعورة باكية متقطعة أو جامحة ممزجرة ناقمة؟ كلا! ولكنكم واجدون من يستطيع أن يُضْدَلَ لكم من المجازات الزائفة والكلنكيات المتكلفة ما تعجز عن بعضه حِنْ سليمان، مما لا علاقة له بالروح ولا رَحْم بينه وبين خيال الحياة. خَبِرْوني يا سادتي! أي شاعر عربي يستطيع أن يتحدثكم حديثاً مغررياً جميلاً عن الحب، عن هذا المعنى العميق العريق في النفس الإنسانية الذي يهز المشاعر ويؤجج نيران الحياة؟ بل أي شاعر عربي يستطيع أن يتحدثكم حديثاً شعرياً صادقاً عن نشوة الحب وسكرة المشاعر ... تلك السكرة الخالدة التي تستغرق النفس وتتغلغل بها في صميم الوجود أيان يتزنم الحق وتخر أمواج الحياة؟ وأي شاعر عربي يقتدر أن يتحدثكم عن الأمل؟ هذا الكأس السماوي المورد الذي تترشف منه الإنسانية التائهة رشقات المسرة وسلسبيل الوجود؟ وأي شاعر عربي يقتدر أن يصور لكم معنى الأمومة الحانية الراءوم، هذا المعنى الكبير الذي ينبعسط كالبحر في عمق وسعة وسكون...؟ أو يريكم مثلاً حِيَا من مُثُلِ الحياة الإنسانية الضائعة، كان يريكم موقف النفس البشرية ما بين العواطف المتباعدة، تدعوها هذه وتُهِبُّ بها تلك، أو يريكم هجسات القلوب وخلجانها، وأحلام النفوس الناشئة الواقفة على عتبة القدر تحلم بما خلف الغد البعيد؟

هل تجدون يا سادة واحداً بين شعراء العربية يستطيع على أن يتحدث إليكم عن مثل هاته الأشياء القوية الغامضة، وإن استطاع فهل يقدر أن يرسم لكم منها صورة مغربية ساحرة أو يعطيكم منها معنى شيئاً جميلاً صادقاً هو أدنى إلى الحقيقة مما عاداه؟ كلا، فأنتم لا تجدون مثل هاته المعاني في الأدب العربي بحال؛ وذلك لأنه أدب مادي محض لا يعرف من عالم الخيال إلا أضواءه الأولى وغيومه الناشئة.

ولكنكم واجدوه وأكثر منه عند آداب الأمم الأخرى. ها هي نشوة الحب الشاملة تترنم في قلب لامرتين، فلنستمع إليها حينما غمرته بفيض من سعادة الحب وغبطة القلب جعلته يستغرق في هذا العالم الرائع استغرق الصوفي الصميم في ربه.

... كنت أفتح ذراعي للهواء والماء والفضاء كأنني أريد أن أعنق الطبيعة أشكرها على أن تجلت بأنوارها وأسرارها وحياتها وجمالها في هذه المرأة الفاتنة، وكانت أجثو على الصخور والشوك دون أن أحس وأركع على شفير الهاوية دون أن أرى وأرفع صوتي بالكلام المبهم يطغى عليه صخب الأمواج الهاדרة فيذهب، وأغوص في رقيع

السماء اللازوردية بنظراتي الدائبة الثاقبة لاكشـف فيها عن وجود الله نفسه. أنا لم أعد
قط إنسـاناً وإنما كنت تسبـحة هائمة وتحـية دائمة أصبح وأغـني وأبـتهل وأصـلي وأنـذـر
وأشـكر بالـفيض والإـلهـام لا بالـنـطق والـكلـام، فـمشـاعـري ثـملـة فـرـحة وـنـفـسي هـائـجة مـرـحة
وـجـسـمي يـتـنقـل من هـاوـيـة إلى لـجـة غـير ذـاـكـر هـيـولـاه ولا مـعـتـقـد بـالـزـمـان ولا بـالـكـان ولا
بـالـمـوت.

وهـكـذا فـجـرـ الحـبـ في قـلـبيـ يـنـابـيعـ الغـبـطـةـ وأـيـقـظـ في نـفـسيـ رـاـقـدـ العـواـطـفـ، وجـلـ
لـعـينـيـ مـسـارـحـ الـخـلـوـدـ!

فـهـلـ سـمعـتـ شـاعـراـ عـربـياـ مـنـ تـعـرـفـونـ يـتـحدـثـ عنـ نـشـوـةـ الـحـبـ بـمـثـلـ هـذـاـ الـحـدـيـثـ
الـقـوـيـ المـشـتـعلـ الـذـيـ تـسـمـعـ فـيـهـ رـنـةـ السـكـرـ وـغـنـةـ السـعـادـةـ وـغـمـغـمـةـ النـفـسـ السـاـهـيـةـ فـيـ
غـيـبـوـيـةـ الـحـلـمـ؟ـ أمـ هـلـ رـأـيـتـ شـاعـراـ عـربـياـ تـجـلـيـ رـوـحـهـ فـيـ مـثـلـ ماـ تـجـلـتـ فـيـهـ رـوـحـ لـأـمـرـتـينـ
مـنـ هـذـاـ الرـدـاءـ السـحـرـيـ الشـفـافـ الـذـيـ يـنـمـ عـمـاـ خـلـفـهـ، كـضـبـابـ الصـبـاحـ؟ـ

هـلـ سـمعـتـ مـنـ فـمـ الـجـنـونـ أوـ قـيـسـ اـبـنـ ذـرـيـحـ أوـ جـمـيلـ أوـ ذـيـ الرـمـةـ أوـ اـبـنـ رـبـيـعـةـ
أـوـ اـمـرـئـ الـقـيـسـ حـدـيـثـ صـادـقاـ لـذـيـداـ عـنـ نـشـوـةـ الـحـبـ كـهـذـاـ الـحـدـيـثـ؟ـ إـنـكـ لمـ تـسـمـعـواـ
مـثـلـ هـذـاـ الـحـدـيـثـ لـاـ مـنـ هـؤـلـاءـ وـلـاـ مـنـ غـيـرـهـمـ مـنـ شـعـراءـ الـعـرـبـيـةـ، وـلـاـ مـاـ هـذـاـ؟ـ هـلـ لـأـنـهـمـ
لـمـ يـتـذـوقـواـ نـشـوـةـ الـحـبـ وـلـمـ تـلـعـبـ بـأـعـطـافـهـمـ حـمـيـاـ الصـبـابـةـ؟ـ لـاـ، فـهـمـ تـذـوقـواـ الـحـبـ كـمـاـ
تـذـوقـهـ لـأـمـرـتـينـ، وـلـكـنـ الـرـوـحـ الـعـرـبـيـةـ لـاـ تـسـتـطـعـ أـنـ تـنـتـرـ إـلـىـ الـأـشـيـاءـ كـمـاـ تـنـتـرـ إـلـيـهاـ
الـرـوـحـ الـغـرـبـيـةـ فـيـ عـمـقـ وـتـؤـدـةـ وـسـكـونـ؛ـ لـأـنـهـاـ مـادـيـةـ تـقـنـعـهـاـ النـظـرـةـ الـعـجـلـيـةـ الـتـيـ تـعـلـقـ
بـالـسـطـحـ دـوـنـ الـجـوـهـرـ وـلـلـبـابـ، فـالـأـدـبـ الـعـرـبـيـ قدـ تـحـدـثـ عـنـ الـحـبـ وـلـكـنـهـ لـمـ يـسـتـطـعـ
أـنـ يـتـحدـثـ عـنـهـ فـيـ جـوـهـرـهـ، بلـ تـحـدـثـ عـنـهـ فـيـ أـعـراضـهـ وـلـوـازـمـهـ، وـتـحـدـثـ عـنـ الـأـمـلـ وـلـكـنـ
بـطـرـيقـةـ توـهـمـكـ أـنـهـ لـاـ يـتـحدـثـ عـنـهـ، فـقـالـ الشـاعـرـ الـعـربـيـ عـنـ الـحـبـ:

هلـ الـحـبـ إـلـاـ زـفـرـةـ بـعـدـ زـفـرـةـ
وـفـيـضـ دـمـوعـ الـعـيـنـ، يـاـ مـيـ!ـ كـلـماـ
وـحرـ عـلـىـ الـأـحـشـاءـ لـيـسـ لـهـ بـرـدـ
بـدـاـ عـلـمـ مـنـ أـرـضـكـ لـمـ يـكـنـ يـبـدوـ

وـحاـوـلـ اـبـنـ الـفـارـضـ أـنـ يـتـكـلـمـ عـنـهـ فـمـاـ وـفـقـ، وـاضـطـرـ إـلـىـ أـنـ يـلـجـأـ لـلـطـرـيـقـةـ الـعـرـبـيـةـ
الـتـيـ سـارـ عـلـيـهـ آـبـاؤـهـ الـأـوـلـونـ مـذـ الـعـصـورـ الـغـابـرـةـ، أـرـادـ أـنـ يـتـحدـثـ عـنـهـ بـغـيرـ مـاـ أـلـفـ
الـعـربـ فـقـالـ: «ـهـوـ الـحـبـ»ـ ...ـ وـلـكـنـهـ عـجـزـ عـنـ أـنـ يـتـمـهـ عـلـىـ مـاـ أـرـادـ، فـقـالـ كـمـاـ أـلـفـ الـعـربـ
أـنـ يـقـولـواـ:

هو الحب، فاسلم بالحشا، ما الهوى سهل، فما اختاره مُضنّى به وله عقل

وتكلم الأدب العربي عن الأمل فقال الطغرائي:

أعلى النفس بالأمال أرق بها «ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل!»

ولكن الباحث يمر بهذا البيت ولا يدري أن قائلها تَكَلَّمَ فيها عن الأمل، لأنه في الحقيقة تكلم عن أثره في الحياة، أما عن الأمل نفسه فلم يقل شيئاً. وتلك هي طريقة الأدب العربي في التكلم عن هاته المعاني العميقة التي تؤدي إلى أعماق الخيال، لا يتكلم عنها في صميمها بل يتكلم عنها في أعراضها وأثارها الباردة المدركة، بل إنه يتبع هذا السبيل في تكلمه عن جميع الأشياء سواء منها ما يدركه البصر وما يحجبه الضمير، وهذا ما دعاني لأن أقول إن الأدب العربي أدب مادي لا سمو فيه ولا إلهام، وأنه ينبغي لنا إن أردنا أن ننشئ أدباً حقيقاً بالخلود والحياة أن لا نتبع الأدب العربي في روحه ونظرته إلى الحياة لأنها لم تعد صالحة للبقاء في مثل هاته العصور التي تتوجب يقظة وانتباها.

فالشاعر العربي إذا عَنَّ له مشهد جميل استَحْفَّ نفسه واستفز شعوره، عمد إلى رسمه كما أبصره بعين رأسه لا بعين خياله، فأعطى منه صورة واضحة أو غامضة على حسب نبوغه واستعداده ولباقيه في الرسم والتصوير، دون أن يكشف عمّا أثاره ذلك المشهد في نفسه من فكر وعاطفة وخيال، كأنما هو آلة حاكية ليس لها من النفس البشرية حظ ولا نصيب، فهو كالصورة الفوتوغرافي لا يهمه إلا التقاط الصور والأشباح وإظهارها كما هي، دون أن يرسم معها صورة من نفسه ولوّناً من شعوره، تاركاً للمشهد وحده أن يثير في نفس الناظر ما يثير، حتى إذا ما تصرف فلا يعود التزويق والتنميق حتى يبدو الرسم جميلاً خلاباً يستهوي الأفئدة ويختلب النفوس. تلك هي الطريقة العربية في تناول الأشياء والنظر إليها، إلا أفراداً قلائل شَذُّوا عن هاته الطريقة في بعض أشعارهم كابن الرومي وأبي تمام والبحتري، أما الشاعر الغربي فإنه يفتح أمام القارئ مغاليل نفسه ليريه ما أهاجه بها المنظر من عاطفة راكرة ووجودان كمين، و يجعله يلمس بقلبه ذلك الوتر الذي اهْتَزَّ في أعماق نفسه فملاً جوانبها بالأنغام وأهاج بها سواكن الأحلام، ثم هو إزاء ذلك إما أن يصف المنظر ويسبغ عليه من الخيال الجميل حُلَّةً ضافية مشبوبة متأججة، وإما أن يسكت عن المشهد تاركاً لخيلة القارئ الحرية في

تصوره وانتخاب المثل العليا إليه. وهذا هو علة ما نحسه من أن الصوت الغربي أقوى دوياً وأبعد رنيناً من الصوت العربي الخافت الضعيف؛ لأن الصوت الغربي هو لحنان مزدوجان في آن واحد: لحن يتصل بأقصى قرار في النفس، ولحن متصل بجوهر الشيء وصنيمه. أما الصوت العربي فليس مصدره النفس ولا جوهر الشيء، ولكن مصدره الشكل واللون والوضع، وشتان بين القشرة واللباب!

والشاعر العربي إذا ما أراد أن يبسط فكرة من أفكاره ألقاها في بيت فرد أو جملة واحدة إن استطاع، ثم انھلَّ بوابل من الأفكار المتتابعة بحيث تكون القصيدة كحدائق الحيوان فيها من كل لون وصنف، أو كالأرض المقدسة التي يحشر فيها الناس من كل أوب وصوب ومن كل فئة وقبيل، وتكون الأفكار منبثة في صعيد واحد، متماسكة بعضها من الرءوس والبعض الآخر من الأذناب، كما في معلقة طرفة وزهير ومجمهرة عدي بن زيد ولامية الطغرائي وكثير من قصائد المتنبي وغيره من شعراء العربية.

أما الشاعر الغربي فإنه يعرض أمام النفس الصورة والأسباب والعوامل التي حرَّكت في نفسه ذلك الرأي بصورة شعرية تحليلية، ثم لا يلقیها كما يلقى الحجر الصد عارياً جاماً، أو كما يلقى الأساتذة تعاليمهم، ولكنه يلقیها في حالة ضافية من الشعر والخيال.

ولكي يتضح الفرق بين الطريقة العربية والطريقة الإفرنجية في تناول الأشياء والنظر إليها، فإنني أريد أن آخذ قصيدة ابن زريق البغدادي وأتناولها بطريقة تحليلية موجزة وأقابل بينها وبين قطع أخرى للشاعر الإسكتلندي (أسيان)، يقول ابن زريق في أول قصيده:

لا تعذليه فإن العذل يولعه قد قلت حَّقاً ولكن ليس يسمعه

ثم ينصرف فيها واصفاً بؤسه وشقائه وما عالجه من مغالبة الدهر ومصارعة بأساء الزمن وتجشم الاغتراب حتى كأنه (مُوكِلٌ بفضاء الله يذرعه)، ثم يتخلص إلى بسط فلسفة القناعة البائسة التي هي لون هادئ من ألوان اليأس وصوت خافت من أصوات القنوط، فيقول: إن من العبث الاسترسال مع المطامع الشرهة والأقدار قد قسمت حظوظ البشر، وإن من (البغي الذي تخشى مصارعه) حرصك في طلب الرزق وأنت تعلم أن الأرزاق قد ذهبت في الناس حظوظاً. وهذا التخلص إلى تلك الفلسفة طبيعي لا تكُف فيه، طبيعي ومن كان كابن زريق تجشم ما تجشم وراء بغية يود أن يسعد بها حبه وقلبه

فيتدوّق لذة العيش وعذوبة الحياة، ثم عاقته الأقدار وأحبّطت سعيه سخرية الدهر. لأن من كان مثّله لا بد أن ينهرج أحد سبلين: هذا اليأس الخانع الذي يتظاهر بالطمأنينة والخصوص، أو ذلك اليأس الجامح الذي يتفجر في ثورة قاسفة وتمرد عنيف يعصفان بكل شيء ولا يلويان على شيء.

وليس هذا ما أريد الوقوف عليه من قصيدة ابن زريق، ولكن غرضي وراء ذلك: غرضي هو وصفه لليوم الوداع وما وراءه من حسرات دامية ومشاعر باكية تتوجّع، غرضي هو تلك العواطف التي تتفجر في جوانب القصيدة متلائمة متبرمة شاكحة، تلك العواطف المشبوبة بنار الألم، وذلك الأسلوب الذي يكسوها هو الذي أريد أن نتعرف منهما مقدار الفرق بين الطريقة العربية والطريقة الغربية. وبعد أن بسط ابن زريق فلسنته القانعة قال:

بالكرب، من فلك الأزرار مطلعه صفو الحياة وأني لا أودعه للضرورات حال لا تشفعه وأدمعي مستهلات وأدمعه	استودع الله في بغداد لي قمراً ودعّته، وبِؤُدي لو يودعني وكم تشفع بي أن لا أفارقه وكم تثبت بي يوم الرحيل، ضحي
--	---

بمثل هاته البساطة يستعيد ابن زريق تلك الذكرى الأليمة النائية التي هي كل ما بقي له من ماضيه الجميل! وبمثل هذا الهدوء الفاتر يتلو ابن زريق أول صفحة من مأساة الحب، ويصف أول طعنة في صميم الألم! وبمثل هذه النفس المطمئنة يقص موقف الفراق بينه وبين من أحب دون أن تنفلت من قلبه أَنَّة، أو تنسلخ من نفسه شعلة من شعل الألم؟ كأنه يقص قصة لم يتزعزع لها قلبه ولا تحطم لها آماله، وإنما هي قصة وقعت أرزاوها على غيره وحلت أرزاوها بسواء لولا شيء من المراة تحس به النفس يتمشى في أجزاء الأبيات. ولكن انظروا كيف يستعرض (أسيان) تلك الذكريات المتفرجة، ذكريات أمسه الذي تلقى فيه أምضي سهم من سهام القدر وتجرع أمر نطفة من نطف العيش، انظروا كيف يقول على لسان (أزمن) لما تذكر مصرع ولديه:

هبي يا رياح الخريف هبي! واعصفي فوق سهول الخلنج العابسة، واصدمي
أيتها العواصف رؤوس السنديان، وادْوي يا سيول الغابة، وتقدم أيها القمر
خلال الغيوم الممزقة، واحسِّر عن وجهك الشاحب فترةً بعد فترة، وأعدْ إلى

ذاكريتي تلك الليلة المروعة ليلة دعا داعي الموت ولدي فسقط (أرنال) القوي
وهلكت (دورا) العزيزة!

بمثل هاته الكلمات النارية المتضمرة التي يكاد يسمع من خلالها زفير وشهيق
الأرواح البائسة يبدأ أسيان ذكرياته، وبمثل تلك البساطة الهدائة يبدأ ابن زريق ذكرياته.
وما أبعد الشقة بين الاثنين! فابن زريق لا يعطي إلى الإنسانية صورة صادقة من نفسه
ولا لوناً واضحًا من شعوره، وأسيان يلقي إليها بكل ما في نفسه من عواطف وذكر،
وبكل ما ثار حول ذكرياته من آلام، وبكل ما عَجَ حول قلبه من غصص وأوجاع. وذلك
هو الفارق بين النفسيّة الغربية والنفسيّة العربيّة، فالعربي يوجز في الملاحظة ويوجز
في البيان الغربي، إن لاحظ أبى إلا أن يستقصي كل شيء، وإن حدث أبى إلا أن يعطي
صورة من نفسه في أفراجها وأتراحها، وفي طهارتها ودعاراتها، وفي يأسها وأمالها.
ثم يذهب ابن زريق بيت أوجاعه وحسراته هينة كأنفاس طفل نائم تساوره الأحلام
المزعجة، وكلما اطَرَدَ في القول إلا وخفَتْ صوته حتى ينتهي نفس القصيدة في هذا
الصوت الخافت الذي يعبث به اليأس والأمل والموت:

جسمين تجمعني يوماً وتجمعه لا بد في غده الثاني سيتبعه فما الذي بقضاء الله نصنعه	على الليالي التي ظنت بفرقتنا وإن تغل أحداً منا منيته وإن يدم أبداً هذا الفرق لنا
--	--

فمن قرأ هذا المقطع الأخير شعر بالأسى يتمشى في أجزاءه يحاول الانفجار، وبالعبرة
الحرارة تتخلّج في أجفان الشاعر تتطلب الانحدار، وبالزفة الحارة تحتبس في صدر
المكلوم دون أن تجد لها مخرجاً أو مناصاً. أما أسيان فإنه يقول في مثل هذا الموقف
فتکاد تسمع من خلال قوله صعقات الحزن وآهات الأسى:

كلموني يا أرواح الموتى من فوق الهضبة ومن أعلى الجبل، كلموني فإنني لا
أرتاع ولا أفزع، خبروني أين تلتقطون الراحة؟ أفي الغيران الموشحة والكهوف!
أوافكيم فلأقيكم؟ حنانيك يا رب! لا يحمل الهواء صوتاً ولا ترد العاصفة
جواباً، أنا وحدي في وسط الآلام، أنتظر الصباح باكية بدموع الغمام! احفروا
القبر يا أصدقاء الموتى، ولا تهيلوا التراب قبل أن تأتي (كلمي)!

مضت حياتي ماضى الحلم، وسبق الذين أحبهم فلم أتأخر عنهم؟ هنا أريد
الثراء بجانب الأحبة على ضفة الجدول الهدار فوق الصخرة!
حينما يضرب الليل بجرانه على التلعة، وتهب الريح رخاء فوق الخلنج،
تجدون هناك روحي مع الهواء تبكي الأحبة وترثيمهم، فيسمعني الصائد في
كوهه فيفزعه صوتي، ولكن لا يلبث أن يحبه، فإن صوتي سيكون عذباً رحيمًا
في رثاء الحبيبين، لقد كان كلاهما عزيزاً عليًّا!^١

وهكذا كانت الروح العربية متكتمة لا تسمح للنور أن يلامس أحلامها، ولا للظلمة
أن تعانق آلامها، وأما الروح الغربية فهي متيسطة تلقي بأفراحها وأتراحها تحت أقدام
الليل وفوق أجنة الرياح ...

هوامش

(١) أخذنا هذه القطعة عن «قرتر» لجيته الذي ترجمها الأستاذ زياد الزيات.

الرُّوح الْعَرَبِيَّة

• طبيعتها الخاصة والعوامل التي كَوَّنَتْ فيها ذلك الطبع. والمؤثرات التي عملت على إبقائه في مختلف العصور.

لقد علمت من كلماتنا السابقة، أن كل ما أنتجه الذهن العربي في مختلف عصوره، قد كان على و蒂رة واحدة، ليس له من الخيال الشعري حَظٌ ولا نصيب، وأن الروح السائدة في ذلك هي النظرة القصيرة الساذجة التي لا تنفذ إلى جواهر الأشياء وصميم الحقائق، وإنما همها أن تصرف إلى الشكل والوضع، واللون، والقالب، أو ما هو إلى ظواهر الأشياء أدنى من دخائلها، فهي لا تتحدث عن الطبيعة إلا بألوانها وأشكالها، ولا يهمها من المرأة إلا الجسد البادي، وهي في القصة لا تتعرف إلى طبائع الإنسان والألم البشري، وفي الأساطير لا تعبر عن فكر سامي وخيال فياض، وإنما هي أوهام لائحة وأنصاب جامدة.

كل هذا علمتموه من قبل حينما عرضت له في شيء من التحليل والإطناب والاستقراء، أما الذي يهمني الآن بعد أن علمت أن كل ما أنتجه العقل العربي كان مطبوعاً على غرار واحد ومصطبةً بصيغة واحدة، فهو أن نعرف طبع الروح العربية التي صقلت منتجاتها هذا الصقال، وأرسلت عليها من هذا اللون الذي عرفتموه، وأن نعرف العوامل التي عملت على خلقها هذا الخلق الذي وسم كل ما جادت به قريحتها بوسم خاص.

وإذن فما هذه الروح وما هو طبعها الخاص؟

الروح العربية خطابية مشتعلة، لا تعرف الأنأة في الفكر فضلاً عن الاستغراق فيه، ومادية محضة لا تستطيع الإلام بغير الظواهر مما يدعو إلى الاسترسال مع الخيال إلى أبعد شوط وأقصى مدى. ومن هاتين النزعتين – الخطابة والمادية – اللتين ذهبا بها في الحياة مذهبًا خاصًا، كان لها ذلك الطبع الشبيه بالنحلة المرحة لا تطمئن إلى زهرة حتى

تغادر إلى أخرى من زهور الربيع؛ ولذلك فهي أبداً منتقلة وهي أبداً حائمة، تلك هي الروح العربية وذلك هو طبعها وإن فيمارأيتم من أثارها العقلية لصداق لما قلت. وقد كان لهاتين النزعتين الأثر الكبير في إضعاف ملأة الخيال الشعري في النفسية العربية حتى كانت آثارها على ما رأيتم؛ لأن الخيال مصدره الشعور، فما كان الشعور دقيقاً عميقاً إلا وكان الخيال فياضاً قوياً. ولا يمكن أن تجتمع الخطابة ودقة الإحساس في نفس إلا ندوراً؛ لأن الخطابة تعتمد المزاج الناري والنظرية البسيطة والإلمامة القانعة، ودقة الإحساس تستلزم المزاج الهدائى والنظرة الطويلة المتدربة والإحاطة الشاملة المقصصية، ولهذا كان الخطباء المصابع والفصحاء المصاليت قلماً يجتمع لهم مع اللسن وشدة العارضة قوة الفكر وسمو الخيال.

وقد كان لهاتين النزعتين آثار أخرى في آراء العرب وأذواقهم، منها أنهم كانوا لا ينظرون إلى الشاعر كما ننظر نحن له الآن من أنه رسول الحياة لأبنائها الضائعين بين مسالك الدهر، بل كانوا لا يفرقون بينه وبين الخطيب من أنه حامي ذمار القبيلة، والمناضل عن أعراضها بلسانه، والمستفز لنخوة الحمية في أبنائها حينما تأذف الآزفة ويجد الجد. إلى أن الشاعر ينظم خطبته والآخر ينشرها نثراً، حتى إنهم لما جعلوا لشعرائهم أرواحاً تملي عليهم الشعر، لم يجعلوا تلك الأرواح ملائكة أو آلهة تسمعهم الوحي وتملأ قلوبهم بالأناشيد الخالدة ... كما كان في أساطير غيرهم، وإنما جعلوها شياطين تصقل لسان الشاعر وتجعله أدنى إلى بلاهة القول وجزالة الخطاب، وما ذلك إلا لأنهم لا يرون في الشاعر إلا خطيباً ينظم ما يقول. وقد تأثر الشعر العربي بهذا الفهم الذي كان يفهمه العرب من الشاعر فكان فيه شيء كثير من الخطابة المنظومة ... ولو استقرأ الباحث الأدب العربي وبالخصوص الأدب الجاهلي والأموي لعلم أن فيه كثيراً من هاته القصائد التي لو فُكت من قيود الشعر وأصفاد القرىض لكانت خطيباً رائعة لا ينقصها شيء من روح الخطابة وطابعها. وماذا يكون غير الخطابة في معلقة عمرو بن كلثوم، ومجمهرة بشر بن حازم وأمية بن أبي الصلت وخداش، وملحمة الفرزدق والأخطل وجرير والراعي؟

ولو شئت أن آتي بأمثلة كثيرة من الشعر العربي الذي لا فرق بينه وبين الخطيب إلا في الوزن والقافية لامتن نفس القول ولضيق المجال، ولكنني سأكتفي بقصيدة واحدة تدللكم على مبلغ تأثر الشعر العربي بالخطابة.

وهاته القصيدة هي قصيدة الحارث بن عباد^١ التي قالها لما قتل المهلل ابنه بحيرا وقال له: (بُؤْ بِشَسْعِ نَعْلِ كَلْيِبِ) يستفز الحمية في قومه لخوض غارات الحروب بعد أن اعتزلها إيثاراً للسلام وحقن الدماء. يقول الحارث بعد أن بكى ابنه وأمر أمّه أن تطيل عليه النحيب:

جالت الخيل يوم حرب عضال
نملاً البيد من رءوس الرجال
حين تسقي الدما صدور العوالى
ب عجيج الجمال بالأثقال
وإنى لحرها اليوم صالحى
فأبأت تغلب على اعتزالى
قتلوه ظلماً بغير قتالى
إن قتل الكريم بالشّسْعِ غال
قد شربنا بكأس موت زلال
ما سمعنا بمثله في الخواли
لقت حرب وائل عن حيال^٢
جد نوح النساء بالأعواوال
شاب رأسي وأنكرتني القوالى
لا نبيع الرجال بيع النعال ...
عاً دلاصاً ترد حد النبال
لقراع الأبطال يوم النزال
ت، على هيكل خفيف الجلال

لهف نفسي على بحير إذا ما
يا بحيرة الخيرات! لا صلح، حتى
وتقر العيون بعد بكاهما
أصبحت وائل تعج من الحر
لم أكن من جناتها علم الله،
قد تجنبت وائلًا، كي يفيقوا
وأشابوا ذوابتي ببحيرا
قتلوه بِشَسْعِ نَعْلِ كَلْيِب!!
يابني تغلب! خذوا الحذر! إننا
يابني تغلب قتلتكم قتيلًا
قرباً مربط النعامة مني
قرباً مربط النعامة مني
قرباً مربط النعامة مني
قربياًها، وقرباً لأمتى در
قرباها بمرهفات حداد
رب جيش، لقيته يمطر المو

صوروا لأنفسكم أيها السادة بدويًا موثيرًا يدوى صوته بين قومه بمثل هاته القطعة النارية الملتهبة: يبكي فتاة ويأمر أمّه أن تبكي، ثم يستعيد أمام قومه صورة من بسالة القتيل، ويتهافط عليه ليستثير فيهم الحمية إلى الحرب، ثم يقول إنه لم يكن خائضاً لآظاها لولا ظلم تغلب، ليظهر براءته لدى قومه وإنه منصف محق في الثأر لابنه والانتقام له، ثم يصرخ فيهم هاته الصرخات الهائلة، يظهر لهم تغلب بمظهر الباغي الغشوم، وأنهم إن سكتوا حملوا سبة الدهر وذلة الأبد:

قتلوا بشعّ نعل كليب! إن قتل الكريم بالشّعّ غال

فأي نفس لا تهب؟ وأي قلب لا يستجيب؟ وأي صدر لا تزخر به نخوة العز،
وسورة الأحقاد القديمة؟ حتى إذا ما استيقن من صبوة قومه إلى الحرب هدَّ تغلبَ
وافتخر بقومه ليؤجج فيهم نيران الحماس وينفح في قلوبهم من روح البطولة، ثم صاح
قائلاً:

قرِّيَا مربط النعامة مني لقت حرب وائل عن حيال

وماذا يقول بعد ذلك وقد أيقظ في أنفسهم حميتها الخامدة فاندفعت عارمة طاغية
تعصف بكل شيء، وظل يردد هاته الكلمات متسرّاً آناً، ومستبسلاً آخر، ومتراجعاً مرة،
ومهيباً بقومه أخرى، وعلى صوته تتناوب النبرات المختلفة: فمن رنة الحزن إلى صيحة
الانتقام، ومن لهجة المسكنة إلى صرخات الجبابرة، حتى إذا لعب بآلياب قومه واستثار
مشاعرهم، فأصبحت مسحورة تتضرر أمره لعبت بعطفيه نخوة العز، وهاجت بنفسه
عوامل الفخر المتأصل في الطبع العربي الصميم، فنسى الحزن والدموع، وانقلب إلى
فارسٍ فاتٍ يلهج ببأسه:

رب جيش لقيته يمطر الموت على هيكل خفيف الجلال

ثم نهض بقومه إلى موقف الحرب يرتل لهم أغاني المجد القديم ويعيد على مسامعهم
أناشيد الفوز والانتصار:

سائلوا كندة الكرام، وبُكْرًا
إذا أتونا بعسكر، ذي زهاء
فقريناه حين رام قرانا
واسألوا مذحجاً، وحَيَّ هلال
مكفره الأذى، شديد الصيال
كل ماضي الذباب عصب الصقال

أليست هاته القصيدة إنما هي خطبة رائعة ألقاها خطيب مُقوَّه عليهم بأفواه
النفوس؟ ألا تذكركم هاته القصيدة النارية بتلك الخطبة التي ألقاها (أنطونيوس) على
شعب روما يطالبهم بالانتقام لقيسير، فامتلك أهواههم وأصبح يصرّفها كيف شاء وأنى
أراد، فإذا هم مظاهرون له بعد أن كانوا متألبين عليه؟

ومن هاته الآثار التي أثرتها النزعة الخطابية كثرة المترادفات في اللغة العربية كثرة هائلة، وما ذلك إلا لأن الخطابة تؤثر الفصاحة على أي شيء آخر، ولا بد للفصاحة من مورد غزير تستمد منه جمال القول وبراعة الأسلوب، ومنها ميل العرب إلى الإيجاز ميلًا قويًا حتى إنهم ليعدونه روح البلاغة، وليس ببعيد عننا خبر ذلك البدوي الذي وقف على خطيب لا يحضرني اسمه وكان مُدلاً بقوله، فسألته ما البلاغة عندكم؟ فقال: الإيجاز، فقال: وما الحصر؟ قال: ما أنت فيه منذ اليوم. وما ذلك إلا لأن طبيعة العرب الخطابية، والخطابة منشؤها حدة الطبع، ومن كان حادًّا الطبع فإنه لا صبر له على الإطناب والإسهاب؛ لأن الطبع الجاد متسرع عجل، عجل في حكمه، عجل في فعله، عجل في قوله أيضًا. ولا يلائم هاته السرعة النفسية إلا السرعة في أداء المعاني على أخصس أسلوب، وذلك هو الإيجاز، وهاته النزعة الخطابية التي تؤثر الإيجاز وتميل إليه هي التي فرضت في الشعر العربي (وحدة البيت)، فكانت القصيدة العربية لا تدور على محور واحد تحيط به من جميع النواحي، وإنما هي كون صغير تُحشر فيه الأفكار حشراً وترصّع فيه المعاني رصًا ...

ثم إن هذا الطابع الذي انطبع عليه الروح العربية آدابها وأذواقها الروحية وليس للعرب به يدان، بل إن ذلك كل ما يمكن أن يُنتظر من أمة عاشت على ذلك النحو الخاص من المعيشة وفي تلك القطعة الخاصة من الأرض، فقد نشأ العرب في رقعة من الأرض ساهمة واجمة لم تجر عليها الطبيعة ريشة الفن، ولا ضربت عليها سحر الجمال، فظلت محرومة من ذلك الجمال الإلهي الذي يغمر النفس بما يفيض عليها من سعادة الحس ونشوة الشعور، حتى كأنما حقت عليها لعنة الحياة الناقمة، وحل عليها سخط الأبد الرهيب!!

شب العرب تحت سماء ضاحية صاحية، لا يحبها سحاب مركوم، ولا يسترها ضباب كثيف، وليس تحتها غير الصحراء الأبدية الصامتة التي لا يعرف الطرف لها حدًا، تضرب في مراكبها سمائين القيظ وأرواح الرياح، مروعة تائهة شاحبة كأرواح ضائعة في آباد الجحيم ... فكان لهم من ملامح الصحراء الشاحبة، ومن طبيعة الأرض القاحلة الجدوب، هذا النحو من الحياة الذي عاشوا عليه، هذا النحو الذي لا يعرف رغد العيش ولا روح السلام، ولا يفقه دعة الحياة الآمنة المطمئنة، ولا غبطة العيش الرخيبة الحالية، وإنما هو ثورة جامحة كالرياح، ظامئة كالهواجر، مشرقة كشمس الظهيرة، لا ترتوي ولا تتشبع، ولا تسكن إلى الراحة، ولا تخلد إلى السكون.

وكيف يستمرءون لذة الأمان الوادعة، وقد طوحت بهم يد القدر في تلك الأرض
الشحبيحة المسكمة التي لا يجدون فيها ما يدفع غائلاً الجوع ويصد عن إضرام
الحروب؟ وما الذي يشغلهم عن إسعار الحروب وهم مخلدون إلى البطالة في أكثر
الفصول، وكان لهم من صحو السماء، ووقدة الصحراء، ولفح الهواجر، صفاء في النفس،
وتلهب في الطبع، وحدة في المزاج.

وكان لهم من تلك الحياة النابية القلقة، ومن هذا المزاج المشتعل والطبع المتوبث،
ومن هاته النفس الصاحبة المشرقة، كان لهم من كل ذلك تلك الروح الخطابية التائرة
التي تعصف بكل شيء ولا تلوى على شيء، فإنه متى اجتمع للنفس صفاء القريبة
وحدة الطبع وبنوُّ الحياة كانت خطابية ولا ريب، لأن الحياة التائرة تجعل هم الناس
في ألسنتهم، لأن الكل يَوْدُ قَوْدَ الجموع بلسانه وخوض المعامع بسيفه، والطبع الحاد
 يجعل الكلام يندفع من أقاصي النفس اندفاعاً متسقاً متوازناً، وصفاء القريبة يعين
على تخير الكلمات. وهل الخطابة في الحقيقة إلا اندفاعات منقطعة وحركات متباينة
وألفاظ فخمة رائعة. وكذلك تكونت النزعة الخطابية في النفسية العربية بحكم الطبيعة
وبمفهوم الوسط، وكذلك كان الروح العربي خطابياً صميماً. أما المادية فقد تكونت
في أنفسهم لأن العرب - كما سبق - لم يكونوا من خفض العيش الجميل وغضارة
الحياة الناعمة وطلاقة الطبيعة الفاتنة على شيء يبعث في أنفسهم تلك النزعة المفكرة
الدعوب التي لا تفتأ تتوغل في دخائل الأشياء وأسرارها دون ملل أو فتور، أو يكسفهم
تلك الطبيعة الساجية الوادعة التي تنصرف إلى ما حولها من جمال الوجود مفكرة ملتذة
شاعرة. لم يكن لهم من ذلك شيء: لا تلك النزعة ولا هاته الطبيعة.

إذ ذاك شأن أمّة لبست من نضارة الحياة درعاً قشبياً وعاشت عيشة غضيرة خضلة،
وتذوقت من بهجة الكون ورواء الوجود لذة شعرية صافية لم يرنتها قطوب الأرض
ولا سهوم الفضاء، واكتسبت من كل ذلك مزاجاً وادعاً مطمئناً ونفساً خيالية شاعرة.
أما العرب فقد عرفتهم لهم طبعاً متسرعاً عجولاً وأرضاً مغبرةً كالحنة لا يزالون يمشون
في مناكبها عسى أن يجدوا مكاناً مخصوصاً تسمون فيه راعيهم وتمرح فيه أطفالهم فإن
وجدوه حسبيوا أنفسهم سعداء!!

وما أحسب أن من عاش بين مثل هذا الطبع الجموح وتلك الطبيعة العارية
بمستغرق في الفكر أو متعمق في الشعور، وأنى له بمثل ذلك والطبع العجل يحتثه
ولا يدعه يتريث في فكر أو عمل، والطبيعة الكالحة لا تحرك في نفسه المشاعر ولا تحيي

دفائن الإحساس، وليت شعري! ما الذي يوقظ الحس وينبه طائر الخيال إن لم يكن هو ذلك الجمال الفني الذي ينسدل على الكون وينسجم على ما بين السماء والأرض؟ فقدرأيتم كيف تضافت طبيعة الأرض ولون الحياة على خلق الروح العربية مطبوعة بطبعات الخطابة، مصبوغة بصبغة مادية خالصة.

ولكنكم حريونَ بعدئذ أن تقولوا: إن هاته العوامل لا يمكن أن تؤثر إلا في العصر الجاهلي؛ إذ فيه وحده يمكن توفر هاته العلل والأسباب، أما العصر الأموي والعصر العباسي والعصر الأندلسي فهي بمعزل عن مثل هاته العوامل التي ألت على الروح العربية ذلك الرداء، حيث قد تغيرت في مثل هاته العصور الأوساط الطبيعية والمعنوية التي عاش فيها العرب وألغوها. فما السبب إذن في أن الأدب العربي قد ظلت تسود عليه روح واحدة في جميع هاته العصور، وقد ظلت نظرته إلى الحياة هي النظرة الأولى البسيطة الساذجة التي لا تعلق بغير الظاهر المحسوس؟

والجواب هو: أن هاته العصور الثلاثة قد أثرت على آدابها عوامل أخرى قربت بينها وبين الأدب الجاهلي في الروح والفكر والخيال وإن لم تقو على ردّ مفعول الزمن في الأسلوب، فاختافت بينها الأساليب اختلافاً بعيداً.

العامل الأول: الوراثة، فقد كان العصر الأموي عصراً عربياً صراحًا في طبعه ومنزعه وشعوره، لم تختلط فيه الأمة العربية بغيرها من شعوب الأرض اختلاطاً كبيراً يدخل في نفسيتها عناصر أخرى غريبة عنها، ولا تبدل عليها الوسط الطبيعي الذي عاش فيه العرب الأوّلون، فظلت لذلك حافظة لميراثها الروحي الذي ورثته عن آبائهما الأقدمين، معترزة به لا تبغي عنه حولاً ولا ترضي غيره.

وظلت آداب هذا العصر شبيهة كل الشبه بآداب الجahلية الأولى، لا أثر للتجديد فيها إلا هذا الشعر القصصي الذي انفرد به ابن أبي ربيعة من بين شعراء عصره أجمعين، وإن كان جديراً أن يسمى توسعًا لا تجديداً؛ لأن الشعر الجاهلي لم يخلُ من مثل هذا الفن خلواً تاماً، ولكن ابن أبي ربيعة قد بلغ فيه شأوا لم يصلوه. وإلا هذا الشعر السياسي الذي أدخله الرزumes إدخالاً وأوجده حالـة الأمة العربية في ذلك العصر الحافـل بأسباب التنافس والأحقاد. على أن هذا النوع من الشعر أيضاً قد كان معروفاً في أدب الجahلية ولكن باسم غير هذا الاسم الذي عرف به في العصر الأموي، ولغرض غير الذي يراد منه فيه، وأعني به ذلك النوع الذي يتمثل واضحاً جلياً في معلقتي عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزـة، هذا النوع الذي كان الشعراء يندفعون فيه اندفاعاً

منشأه تنازع القبائل لا على العرش والسلطان كما كان في أكثر المنازعات الشعرية في العصر الأموي، ولكن على الشهرة بين العرب بما يكسب الحمد ويجلب المجد.

وطلت الأمة العربية محتفظة بميراثها المعنوي إلى أن جاء العصر العباسي فاختلطت الأمة العربية بغيرها من شعوب الأرض، وامتزج الدم العربي بغيره من الدماء الأخرى امتزاجاً عظيماً، واستوطن كثير من الأعراب المدن والأقصارات يتملؤن جمال هاته الحضارة الناشئة الجميلة، فكان لهذا أثره في اختلاف الوسط الطبيعي ولون الحياة وفي المزاج العربي الموروث، وكان لهذا الأثر أن ظهرت في الأدب العربي ظاهرة جديدة هي الشعر الطبيعي الذي لم يعرفه الأدب الجاهلي والأدب الأموي إلا معرفة تكاد تكون منعدمة، ولكن المزاج العربي العتيق الذي لم يزل قوياً شاعراً بنفسه قد طبع هذا النوع الجديد من الأدب بطابعه الخاص وأسبغ عليه حلة ضافية من نزعته المادية، فكان حسياً لا يتحدث إلا عن اللون والشكل وما إليها إلا شيئاً قليلاً ضئيل الأثر حاول أن ينظر إلى الطبيعة نظرة قوية نافذة.

وأما الأندلسي فقد تأثر بذلك المزاج العربي الذي أورثه إياه العرب كما تأثر الأدب الأموي والعبيسي من بعده ولكنه كاد يكون لنفسه مزاجاً خاصاً لولا حكم القدر، فإن العرب لما ذهبوا إلى الأندلس مع طارق بين زياد وفتحوها أعجبتهم تلك الأرض الجميلة الخصبة، فاستوطنها كثير منهم وظلوا يتقاررون عليها يحملون معهم أمزجتهم العربية وميراثهم الروحي الصميم الذي عملت في تكوينه العصور والأجيال إلى أن أصبحوا هناك شعباً كثيراً قوياً له عاداته وأخلاقه وطباعه، وله ما للعربي القديم من أنفة وعز نفسم وحدة طبع وادعاء عريق، وله ما للعربي القديم من تغّي بمجد أسلافه وتتمدح بمخاير آبائه، حتى إن عبد الرحمن الداخل لما يَمَّ الأندلس ألقى الحمية العربية مشبوبة بين تلك القبائل وألقى النعرة القديمة التي نبهتها حوادث العصر الأموي تكاد تندلع عن فتنة شعواء بين اليمانية والمضرية؛ حتى إنهم كانوا يتبدلون الولاية كل عام لقبيلة! وكان هذا الشعب العربي النازح الذي بيده مقاليد الأمور ينظم الشعر بتلك الطبيعة العربية التي تتفتح فيه من روح العرب فتجعله عربياً لا فرق بينه وبين الشعر العربي في الشرق من حيث الروح والنزعات، بل وحتى الأسلوب، ولكن امتزاج هذا الشعب العربي بالعنصر الأندلسي امتزاجاً شديداً، ودخول هذا العنصر في الإسلام واتخاذه اللغة العربية أداة للتعبير عن ذات نفسه من شعر ونشر وحديث، واحتلال بلاد الأندلس عن جزيرة العرب في الهواء والمشهد وطبيعة الأرض، كل هذه الأسباب قد

عملت عملها فأثرت في الأسلوب الأندلسي وطبعته بطبع تل الأرض الجميلة وصقلته بصيقل ذلك الوسط فأصبح أنيقاً رشيقاً يحاكي هواء الأندلس لطفاً ورقاً، ولكن الروح الشعري قد ظل بادئ بدء كما عهدهناه في جزيرة العرب، ولما طال الزمن على الأمة العربية في ذلك البلد وتأثرت بروح الأمة الأندلسية وضعف فيها المزاج العربي الموروث إذ ذاك أحست الأمة الأندلسية إحساساً غامضاً بالحاجة إلى التعبير عن روحها الأصلية التي تستوحى من طبيعة الأندلس ومتاح من نهر الحياة الأندلسية، وأحس الشعراء بظميًّا داخليًّا في أنفسهم إلى تعرُّفٍ منابع جديدة للشعر، فجدوا في البحث ودأبوا في الطلب، ولكنهم لم يُوفُّقُوا في بحثهم، فلم يعثروا على المنبع الحقيقى الذي يَنْتَدِى مأوه على الكبد الظامية؛ ذلك لأنهم بحثوا عن منابع الشعر في قشور الحياة وأزيائها وفتَّشُوا عن حقيقة النفس في فنون الكلام، فجددوا في الأوزان ولم يجدوا في الروح وتفنوا في الأساليب ولم يتفنوا في الجوهر واللباب. ولو لم يعجلهم القدر المتاح لظفروا بما شَوَّفَتْ إليه أرواحهم ولكن في الأدب العربي نوع قوي عميق لا عهد للأدب العربي بمثله، ولكن جف القلم بما هو كائن، وأحمد القضاء ذلك اللجوه.

العامل الثاني: ما كان يفهم من الأدب عند نقدة الإسلام؛ فإن هؤلاء النقدة كانوا لا يفهمون الأدب على حقيقته التي ينبغي أن يُفهم عليها من أنه صوت الحياة الذي يهب الإنسانية العزاء والأمل ويرافقها في رحلة الحياة المُلْمَة المضنية المتعسفة في صحراء الزمن، وأنه المعزف الحساس الذي توقع عليه البشرية مراثيها الباكية في ظلمة الليل وأناشيدها الفرحة في نور النهار، وإنما كانوا يفهمون منه فهماً معوكساً يختلفون في تأويله ويتتفقون على مداوله، فهم يتتفقون على أنه لا يقصد لنفسه كفُّ جدي من فنون الحياة له روحه وأطواره ونزاعاته، لكنهم يختلفون في الغرض من استعماله، أما القدماء كعمرو بن العلاء وطبقته فقد كانوا ينظرون إلى الأدب كوسيلة من وسائل الدين؛ لأنهم كانوا لا يمارسونه ويدرسونه إلا ليتفهموا به غريب القرآن والسنّة، وهذا الفهم الذي فهموا به الأدب قد جعلهم لا يفهمون من الأدب إلا أنه ألفاظ وتراتيب وجمل وأساليب ليس وراءها روح ولا فكر، وهو الذي جعلهم يعتقدون أن الأدب الجاهلي هو من خير المنتخبات العقلية التي عرفها العالم لأن العرب هم كل ما بَرَّ الله من قرائح وعقول. وقد لج بهم هذا الفكر حتى تعصبو للأدب الجاهلي وازدرروا ما أنتجه الذهن الإسلامي، وحسبكم دليلاً ما ذكره الأصمسي من أنه جلس بمجلس أبي عمرو بن العلاء ثمانى حجج ما سمعه استدل ببيت إسلامي قط. فكان

إذا سُئل عن ذلك أجاب: «ما كان من حسن فقد سبقوا إليه، وما كان من قبيح فمن عندهم، ليس النحط واحداً. ترى قطعة من الدبياج وقطعة مسح وقطعة نطع» ولماذا هذا؟ لأن الشعر الجاهلي أمنٌ أو أغرب؟ كلا فإن في شعر الأخطل والفرزدق ما فيه من متنانة وجذالة وفي رجز العجاج ورؤبة من الغرابة ما يعجز عنه شعراء الجاهلية، ولكن لأن الشعر الجاهلي هو الذي يثقون بما فيه من لغة يتذذلون منها مادة صالحة لتفسير القرآن وشرح الحديث ومعرفة ما فيهما من بلاهة وإعجاز.

وعلى هذه الفكرة الدينية في فهم الأدب، هذه الفكرة التي لا تفهم منه إلا أنه ألفاظ فخمة جاهلية بنوا لهم منطقاً خاصاً غريباً لا يخلو من شذوذ، وهو أن الخير كل الخير – إذا أراد الشعراء أن ينظموا الشعر! – هو أن يتابعوا العرب في الطريقة التي ساروا عليها في شعرهم من بدء القصائد بالتسبيب والتشبيب ووصف ترطّلها وأثارها الباقية من دمنة مسودة ونوى جفيف، أو وتد مضروب وخباء منصوب وماشية راعية وإبل راعية، حتى ولو كان الشاعر من سكان الحواضر الذين لا يعرفون الباادية ولا يفقهون الخبراء! وحتى ولو كان شيئاً متهدماً لا يخفق قلبه بالحب ولا تطربه نغمات الغزل، ومن التوصل إلى المدح بامتلاء الإبل الضواامر وقطع الفلوتات المترامية وخوض الموامي القاحلة التي يرقص في أطرافها الآل ويلتمع السراب حتى ولو كان سميراً من سُمَّار الملك الذين لم يتجرشو لرؤيته غير قطع شارع أو منعرج! ولم لا يكون ذلك خيراً ولم لا يكون واجباً؟

أليس امرؤ القيس قد كان لا يبدي القصيدة إلا بالتحدث عن محبوبته؟ أليس النابغة أو الأعشى قد كان لا يمدح الملك إلا بعد أن يصف ما اعترضه في سبيله من الفلوتات المقرفة التي جابها بأعمال المطايا؟ كأنهم يحسبون – سامحهم الله – أن مجرد كون امرئ القيس أو غيره من شعراء الجاهلية قد قال الشعر على نحو خاص يلائم طبعه وحياته يلزم الشعراء من بعده باتباعه واقتفاء خطاه وبأن لا يخرجوا على ما سَنَّ لهم أميرهم الضليل من قانون وشرع. لا ساء ما يحكمون!

وهذا المذهب اللغظي والدينبي في فهم الأدب هو الذي كان أبو نواس يندد عليه متبرماً ساخراً فيقول:

راح الشقي إلى دار يسائلها
وريحت أسأل عن خمارة البلد
ثكلت أمك قل لي من بنوأسد
ييكي على طلل الماضين منأسد

ليس الأعاريب عند الله من أحد
ولا شفي قلب من يصبو إلى وتد!

ومن تميم؟ ومن بكر سقوا مهلاً
لا جف دمع الذي يبكي على حجر

ويقول:

ولا تحد بالدموع للجدد والنوء كالحوض بالملا الجلد تربيط بها خيمة إلى وتد	لا تبك رسمًا بجانب السند ولا تعرج على حمى عرج وعد عنها إلى دساكركم
---	--

ولكنه بالرغم عن ذلك كان كثيراً ما يسترضي أنصار هذا المذهب لكي يقبلوا على
قصائد ويرونها فيتبع ذلك المذهب الذي يطربون له، فيبكي الربع وينعي الأحبة
ويصف الناقة والمفازة وهو لم يغادر بغداد كما فعل في قصيدة:

أربع البلا! إن الخشوع لبادِ عليك وإنني لم أخنك ودادي

وأما الطائفة الثانية من النَّقْدِ فهي سلالة الأولى وربيبتها، وقد كان رأيها في
الأدب أنه وسيلة من وسائل اللهو وتزجية الفراغ، وعلى عهد هؤلاء انتشرت تلك
الأفكار المسمومة، التي لا تفهم من الشعر إلا أنه نوع من أنواع الشحاذة المنظمة
ووضربُ من ضروب الاستجداء لا غير، والتي تجأر بكل قحة ورقاعة أن أغذب الشعر
أكذبه، ومن أيامه هاته الطائفة — بكل الأسف — وطنينا ابن رشيق، فقد كان يصرح
بمثيل هاته الآراء في غير موضع من مواضع العمدة، وكان من آثار هاتين الطائفتين
في الأدب العربي أن أصبح لا يُعْنِي فيه إلا باللفظ وما مَتَّ إليه من مجاز واستعارة
وجناس ومقابلة، وإن كثرت ثروته اللفظية وقلت ثروته الحنونية، إذ انصرف الشعراء
إلى تمويه الألفاظ وتنويعها، وتتجدد الأساليب المتباعدة دون أن يجدوا شيئاً في جوهر
الشعر وروحه، بل ظل كما عهده العرب في الروح والفكر والخيال، وإن كان الشعر
العربي كذباً أكثره. وكيف لا يكون كذلك وقد أصبح من الفرض على الشاعر أن
يستهل القصيدة بالغزل والنسبيّ عند إرادة المدح وأن يصرف هَمَّهُ في المدح إلى
المبالغات الكاذبة والإطراء البغيض؟

العامل الثالث: عدم اطّلاع العرب في جميع العصور الماضية على أداب الأمم الأخرى،
فإن العرب بالرغم عن أنهم ترجموا من مختلف العلوم العقلية ما أحدث الآخر

الجميل في الذهن العربي لم يترجموا من آداب الأمم الأخرى ما يحدث انقلاباً في الروح العربي، فهم قد ترجموا فلسفة اليونان وحكمة فارس وعلومها، أما آداب اليونان والرومان فإنهم لم يترجموا منها شيئاً، وأحسب أنهم لم يترجموا هاته الآداب لما فيها من النزعة الوثنية، ولكن هذا لا يمنع الشك والتساؤل، فما لهم لم يترجموا أدب فارس والهند وقد ترجموا حكمتها واطلعوا عليها؟ هذا سؤال لم يجب عليه التاريخ، وما أخال السبب في ذلك إلا الغرور، فقد كان العرب معتزين بأدبهم يحسبونه أنه هو كل شيء في العالم فلم يجدوا حاجة تدفعهم إلى ترجمة الآداب الأخرى وظل المثل الأعلى الذي تحتديه العصور الإسلامية في روحه وأسلوبه هو الشعر الجاهلي.

فكان لعدم اطلاع العرب على آداب الأمم الأخرى أثر كبير في إبقاء الروح الشعرية العربية على حالها في جميع الأجيال زيادة على تلك الدعايات المتكررة التي قام بها طوائف النقاد في جميع العصور، وعلاوة على ما حمل التاريخ هاته الأمم والشعوب من ذلك الميراث الروحي الذي خلفه العرب لأحفادهم.

وقد تألفت هاته العوامل الثلاثة على إبقاء ذلك المزاج العربي الصميم في نفسيات الأمم الإسلامية وعلى طبع آدابها بالطابع الذي انطبع به الأدب الجاهلي من قبل.

هوامش

(١) هو سيد من سادات العرب وفرسانهم، ولما قتل المهلل ابنه في حرب البسوس جز ناصية فرسه (النعامنة) وقطع ذنبها، وحلف أن لا يكف عن الحرب حتى تكلمه الأرض، فلما أسرف في القتل حفروا سرباً في الأرض وأمروا رجلاً أن يكلمه من داخله، وبذلك كف عن الحرب.

(٢) وائل، قبيلة من قبائل العرب.